الجملة الابتدائية ووظائفها النصية

د. خلود إبراهيم العموش *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٩/٨/١٠ تاريخ القبول: ٢٠١٠/٢/٤

ملخص

يدرس هذا البحث الجملة الابتدائيّة دراسة تجلّي: حدَّها، وخصائصها، ووظائفها النحويّة، والدلاليّة، والتداوليّة، والنصيّة.

والجملة الابتدائيّة هي رأس الخطاب ومفتتحه، وهي جملة مستقلّة بالمعنى النحوي للاستقلاليّة، لكنّها شديدة التعالق بالتشكيل النصّي كلِّه؛ فكلّ حركة في النص ترتدّ إليها.وهي تؤدّي وظائف تداوليّة متعدّدة تتّصل بالمتلقّي؛ فهي فاتحة اللقاء بين النص والمتلقّي، وبذا تشكّل مفتاح النص ومطيّة نجاحه، وأهمّ أسباب تماسكه وترابطه وانسجامه؛ ولهذا حظيت باهتمام النحاة والبلاغيّين وعلماء القرآن، كما حظيت باهتمام علماء النص في العصر الحديث.

وقد خلص البحث إلى أهمّ الاستراتيجيّات التي تسلكها الجملة الابتدائيّة في الإمساك بناصية النص.

كما خلص كذلك إلى أهميّتها النصيّة المتمثِّلة في الإمساك بالبنية الإحاليّة والزمانيّة للنص كلِّه. وإنّ هذه الجملة، وإنْ كانت بنية مستقلّة، فإنّه لا يمكن دراستها بمعزل عن النصّ أبداً.

الكلمات المفتاحيّة: الجملة الابتدائيّة، نحو النص.

Abstract

The First Sentence and its textual functions

This study investigates the first sentence textually in terms of its start and end, feature, syntactic, semantic, current and textual functions.

The first sentence in the top of discourse and its key. It is syntactically independent, but however too tightly related with other parts of the text. Every movement of the text, of whatsoever type, refers to it. It is the key of the meeting between the text and the reader, and one of the main causes of the text cohesion, connection, and harmony. Therefore, the first sentence gained enough interest from rhetoricians and the Arab Qura'n scholars, besides the interest of modern text scholars.

The study has concluded some strategies which the first sentence adapts to hold up with the controlling part of the text. The study has shown that this sentence cannot be studied separately from other textual elements, even though it is independent.

Keywords: The First Sentence, Text Grammar.

* قسم اللغة العربية، الجامعة الهاشمية.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

مقدمة:

يدرس هذا البحث الجملة الابتدائيّة دراسة تجلّي: حدّها، وخصائصها، ووظائفها النحويّة، والدلاليّة، والتداوليّة، والنصيّة.

والجملة الابتدائيّة عنصر رئيس في النص. وقد حظيت بالعناية منذ زمن مبكّر جداً؛ فهذا أرسطو يعرّف الاستهلال بقوله: "هو بدء الكلام، ويناظره في الشعر المطلع، وفي فنّ العزف على الناي الافتتاحية. فتلك كلّها بدايات، كأنّها تفتح السبيل إلى ما يتلو"(١).

وفي الدرس اللّغوي العربي وقف عندها النحاة، والبلاغيّون، وعلماء القرآن. وستفيد الدراسة من جهودهم جميعاً، كما تفيد من منجزات اللّسانيّات النصيّة بتوجّهاتها المعرفيّة المختلفة التي أولت ابتداء الخطاب عنايتها واهتمامها. غير أنّها تستند في الرؤية والتحليل إلى نظريّة التعليق عند عبد القاهر الجرجاني، التي صدرت عن فهم عميق للعلاقة بين النظم والنحو. فما النظم عنده سوى "تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"(٢). أمّا النحو فهو الطرق والوجوه التي تعالقت بها هذه الكلم بعضها ببعض(٣).

ويسعى هذا البحث إلى تجلية تقنيات تعالق الجملة الابتدائيّة بالنصّ كلّه، والوظائف التي تؤدّيها هذه الجملة في النص، ودورها في تماسكه وانسجامه، ودورها في نجاحه. ووظائفها التداوليّة المتعلّقة بالمتلقّي وسياق الحال. ويسعى إلى الإجابة عن سؤال رئيس هو:

هل تمتلك الجملة الابتدائيّة خصائص تركيبيّة وأسلوبيّة عامّة تنطبق على أنواع النصوص كلّها. أم أنّ كلّ نصّ يفرض ابتداءه الخاص؟

وهذه الدراسة دراسة نظريّة للجملة الابتدائيّة كما تبدو في الموروث اللّغوي العربي عند النحاة والبلاغيّين وعلماء القرآن. وبذا ستتشكّل في العناوين الرئيسة التالية:

أ. الجملة الابتدائيّة: حدّها وسماتها النحويّة.

ب. سمات الجملة الابتدائيّة الناجحة.

ج. ابتداء النص المعجز.

أ. الجملة الابتدائيّة: حدّها وسماتها النحويّة:

يجعل ابن جنّي الجملة والكلام شيئاً واحداً. يقول: "أمّا الكلام فكلّ لفظ مستقلّ بنفسه مفيد لمعناه، وهو الذي يسمّيه النحويّون الجمل"(٤). وفي موضع آخر يقول: "الكلام هو الجمل المستقلّة بأنفسها الغانية عن غيرها"(٥). وخلاصة هذين التعريفين ركنان رئيسان يميّزان الجمل جميعاً، ومنها الجملة الابتدائيّة، هما: الاستقلاليّة، والفائدة.

---

(١) أرسطو، **الخطابة**، ترجمة، عبد الرحمن بدوي، ط(١)، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقيّة، بغداد، ١٩٨٠، ص٣٤.

(٢) الجرجاني، عبد القاهر، ت(٤٧١هـ/ ١٠٧٨م)، **دلائل الإعجاز**، تحقيق محمود محمد شاكر، ط (٣)، مطبعة المدني، القاهرة،١٩٩٢، ص٤.

(٣) **المصدر نفسه**، ص٨.

(٤) ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، ت(٣٩٢هـ/ ١٠٠١م)، **الخصائص**، تحقيق محمّد علي النّجار، ط(٤)، وزارة الثقافة والإعلام العراقيّة، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، بغداد، ١٩٩٠، ج١، ص١٧.

(٥) المصدر السابق، ج١، ص١٨.

أمّا "الجملة الابتدائيّة" مصطلحاً فقد تأخّر ظهوره في الدرس النحوي حتّى القرن الثامن الهجري، وذلك عندما حظي مبحث "إعراب الجمل" بوضوح المعالم والاستقلاليّة. وقد جعل أبو حيّان الأندلسي (٧٤٥هـ) الجملة الابتدائيّة الأولى في رأس قائمة الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب، لكنّه لم يسمّها. ووصفها بقوله: "الجمل التي لا موضع لها من الإعراب اثنتا عشرة: وقوعها ابتداء كلامٍ لفظاً ونيّة، نحو: "زيد قائم". أو نيّةً لا لفظاً نحو: "راكباً جاء زيدٌ". وبعد أدوات الابتداء"(١).

أمّا المرادي (٧٤٩هـ) فقد أطلق عليها اسم "الابتدائيّة". وقال في معرض تعداده للجمل التي لا محلّ لها من الإعراب: "فأمّا الابتدائيّة، فلا محلّ لها إجماعاً، وهي ثلاثة أقسام: مبتدأة لفظاً نحو: "زيدٌ قائم". ومبتدأة نيّة، نحو: "راكباً جاء زيد"؛ لأنّ الجملة في نيّة التقديم، والحال في نيّة التأخير. ومبتدأة حكماً، وهي الواقعة بعد أدوات الابتداء"(٢).

ويقدّم ابن هشام (٧٦١هـ)، وهو الذي استوى عنده مبحث "إعراب الجمل" على سوقه، تعريفاً أوضح للجملة الابتدائيّة، يقول: "الابتدائيّة، وتسمّى أيضاً المستأنفة، وهو أوضح؛ لأنّ الجملة الابتدائيّة تطلق أيضاً على الجملة المصدّرة بالمبتدأ، ولو كان لها محلّ. ثمّ الجملة المستأنفة نوعان: أحدهما: الجملة المفتتح بها النطق، كقولك ابتداءً: "زيدٌ قائمٌ". ومنه الجمل المفتتح بها السور. والثاني: الجملة المنقطعة عما قبلها، نحو: "مات فلانٌ رحمه الله"، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۞ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾(٣)".

هذا كلّ ما نجده عن الجملة الابتدائيّة في مبحث "إعراب الجمل" عند النحاة، وهو -كما يلاحظ- لا يفصّل القول فيها. ويستخلص منه أنّ وصف "الابتدائيّة" عندهم يطلق على الصورتين التاليتين:

- الجملة المفتتح بها النطق، لفظاً أو تقديراً. مثل: فواتح السور.
- الجملة المنقطعة عمّا قبلها، وقد تكون مسبوقة بأداة من أدوات الابتداء.

وواضحٌ أنّ الصورة الأولى هي التي تخصّنا في هذا البحث، وستفرد بوصف الابتدائيّة دون الصورة الأخرى. التي سيطلق عليها اسم "الجملة الاستئنافيّة". مع الإشارة إلى أنّ "الاستئناف" في اللّغة معناه الابتداء(٤). وصنيع النحاة في جمع الصورتين السابقتين تحت اسم "الجملة الاستئنافيّة" إنّما هو اتّساق مع هذا المعنى اللّغوي للفظة "الاستئناف".

ويقترح علي أبو المكارم أن يصطلح على المفتتح بها النطق اسم "المستأنفة استئنافاً تامّاً أو كاملاً"؛ ليفرّق بينها وبين المستأنفة التي تأتي في درج الكلام(٥). ربّما رغبة منه أن يبقى مصطلح "الجملة الاستئنافيّة" الذي اقترحه ابن هشام هو المستعمل، مع فارق أن ابن هشام جعل الابتدائيّة والاستئنافيّة شيئاً واحداً، ولم يفرّق بين الصورتين.

---

(١) أبو حيّان الأندلسي، محمد بن يوسف، ت(٧٤٥هـ/ ١٣٥٣م)، **ارتشاف الضرب من لسان العرب**، تحقيق رجب عثمان، ط(١)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨، ج(٣)، ص١٦١٧.

(٢) المرادي، بدر الدين الحسن بن قاسم، ت(٧٤٩هـ /١٣٤٨م)، **رسالة في جمل الإعراب**، دراسة وتحقيق د. سهير محمد خليفة، ط(١)، القاهرة، ١٩٨٧، ص١٠٦.

(٣) ابن هشام الأنصاري، جمال الدين عبد الله يوسف، ت(٧٦١هـ/ ١٣٥٩م)، **مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب**، حقّقه وعلّق عليه: د. مازن المبارك ومحمّد علي حمد الله، وراجعه سعيد الأفغاني، ط(١)، دار الفكر للطباعة والنشر، ط(١)، ١٩٩٢، ص٥٦٠، والآية من سورة الكهف، الآية (٨٤).

(٤) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم ت (٧١١هـ/ ١٣١١م)، **لسان العرب**، ط(١)، دار صادر، بيروت، ١٩٩٠، مادة (أنف).

(٥) أبو المكارم، علي، **مقوّمات الجملة العربيّة**، ط(١)، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٧، ص١٦٧.

والفصل بين الابتدائيّة والاستئنافيّة، على النحو الذي أوردناه، هو رأي كثير من الدارسين المحدثين[١]. كما أنّ الدارسين العرب المهتمّين بتحليل الخطاب درجوا على استعمال عبارة "الجملة الابتدائيّة" للجملة الواقعة في صدر الخطاب، والاستئنافيّة على كلّ جملة انقطعت عما قبلها ووقعت في درج الخطاب[٢].

ولا يضير –هنا– المأخذ الذي وجّهه ابن هشام إلى مصطلح "الابتدائيّة"، وبسببه فضّل مصطلح "الاستئنافيّة"، ونقصد به تعدّد دلالات هذا المصطلح، فإنّ هذا التعدّد ليس حالة فريدة في المصطلح النحوي؛ فمصطلح (المفرد) مثلاً يطلق على مسمّيات متعدّدة، وهذا لم يمنع وضوحه في استعمالاته المتعدّدة. أمّا استخدام مصطلح "الاستئنافيّة" على الصورتين السابقتين – كما يقترح ابن هشام – فيمكن أن يؤدّي إلى لبس. وعلى هذا، فالجملة الابتدائيّة هي الجملة الأولى في النص، وهي المفتتح بها النطق، أمّا الاستئنافيّة فهي الجملة المنقطعة عما قبلها تركيبيّاً، فهي ليست أوّلاً في النص ويسبقها كلام.

وتوصف الجملة الابتدائيّة عند النحاة بأنّها لا محلّ لها من الإعراب، ويقصدون بذلك أنّها لا تحلّ محلّ المفرد. يقول الرضيّ: "وكلّ جملة يصحّ وقوع المفرد مقامها فلتلك الجملة موضع من الإعراب، كخبر المبتدأ، والحال، و...." [٣]. وهم يفترضون أنّ الأصل أن لا تقع الجملة موقع المفرد، لأنّ الأصل فيها أن تكون مستقلّة. يقول أبو حيّان: "أصل الجملة ألاّ يكون لها موضع من الإعراب؛ لأنّ ما له فيها موضع من الإعراب، إنّما هو لوقوعه موقع المفرد، والأصل في الجملة أن تكون مستقلّة لا تقدّر بمفرد، فتكون جزءاً لما قبلها"[٤].

ولم يخالف في هذا أحد من القدامى أو المحدثين سوى حسني عبد الجليل، الذي ذهب إلى أنّ الجملة الابتدائيّة لها محلّ من الإعراب، وبنى مقولته على الأفكار التالية:

١. الأصل في الجمل أن يكون لها محلّ من الإعراب لأنّ المفردات لها مواضع إعرابيّة، ولأنّ الأصل في الكلام أن يكون جملة؛ لأنّه لا معنى للكلمة إلاّ في تركيب إسنادي.

٢. الجملة التي لا محلّ لها من الإعراب هي التي تسلب تمام فائدتها في موضعها، لأنّها تكون نظيرة للحرف، وما ينطبق عليه ذلك جملتان: جملة الصلة وجملة فعل الشرط. أمّا الجملة الابتدائيّة فلم تسلب فائدتها، وبذا فإنّ لها محلاً من الإعراب.

٣. الجملة الابتدائيّة مؤسِّسة لنفسها ومؤسِّسة لغيرها. وهي منطلق الإعراب بالنسبة للكلام، بوصفه بناءً من الجمل لا مجرّد نظير للجملة المفيدة. والابتداء ليس مطلقاً، والجملة الابتدائيّة لابدّ أن يكون لها تأسيس متضمّن فيها وفي السياق الذي ينتظمها، من حيث إنها وحدة من وحدات النص، وهي بوصفها جزءاً من كل، لابدّ أن يكون لها موقع إعرابي في إطار هذا الكل، الذي يمثّل منظومة، كلّ جزء منها مسبوق وملحوق.

---

(١) انظر مثلاً: السامرّائي، فاضل، **الجملة العربيّة**: تأليفها وأقسامها، ط(١)، دار الفكر للطباعة والنشر، عمّان، ٢٠٠٢، ص١٨٧. وقباوة، فخر الدين، **إعراب الجمل وأشباه الجمل**، ط(١)، دار الأصمعي، حلب، ١٩٧٢، ص٣٤.

(٢) انظر: الشاوش، محمّد، **أصول تحليل الخطاب في النظريّة النحويّة العربيّة "التأسيس لنحو النص"** ط(١)، جامعة منوبة، كليّة الآداب، تونس، ٢٠٠١، ج١، ص٣٤٥.

(٣) الأستراباذي، رضيّ الدين، ت(٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)، **شرح الكافية لابن الحاجب**، تحقيق وتصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، ط(٢)، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ١٩٩٦، ج٢، ص٢٩٨.

(٤) أبو حيّان الأندلسي، **ارتشاف الضرب**، ج٣، ص١٦١٧.

٤. وهي، حين تعرّت عن العوامل التي تتسلّط على الجمل، أصبحت معمولة للابتداء الذي هو عامل في المبتدأ، وهو أيضاً عامل في الجملة الابتدائيّة. ولمّا كانت الجملة في موضع النكرة كان الابتداء مقدّراً، والجملة في موضع الخبر، وهي عاملة فيما بعدها[١].

وتقول الباحثة في هذا إنّ الإعراب إنّما ينشأ بسبب تركّب المفردات بعضها إلى بعض؛ وذلك بسبب المعاني المتعاقبة على الاسم الواحد، كالفاعليّة والمفعوليّة، والإضافة، وغيرها. والتركيب هو الأصل في وضع المفردات. يقول السكّاكي: "والغرض الأصلي من وضع الكلم هو التركيب لامتناع وضعها إلاّ لفائدة"[٢].

هذا على مستوى المفردات، أمّا على مستوى الجمل فالتركيب ليس شرطاً فيها، بل الأصل في الجمل الاستقلال، وبالتالي فالأصل أن لا يكون لها محلّ من الإعراب لانعدام موجبه فيها؛ "فالتركيب شرط الإعراب، لكنّ الإعراب ليس شرط التركيب"[٣]؛ وذلك "لأنّ الإعراب لا يستحقّ إلاّ بعد العقد والتركيب"[٤] كما يقول الزمخشري، وبما أنّ الجملة الابتدائيّة ليس قبلها شيء لتكون جزءاً منه، دلّ ذلك على استقلالها، وإذا كان يفترض في الجمل كلّها عند النحاة أن تكون مستقلّة، فإنّ هذا الافتراض يصبح واقعاً مؤكّداً حين تكون الجملة رأس الخطاب ومفتتحه. ولا معنى لقوله إنّ الابتداء ليس مطلقاً؛ فالنص مكتملٌ ومغلق، وأيّ تأويل له لابدّ أن ينبثق من بنيته الداخليّة وليس من أجزاء نفترضها، نضيفها إليه كيفما أردنا، وإلاّ لأصبح النص مفتوحاً لعددٍ لا متناهٍ من احتمالات الابتداء. وسمة "الإغلاق" من أهمّ سمات النصّ عند علمائه[٥]؛ ويقصدون بذلك أن النصّ يشكلّ وحدة دلاليّة وتركيبيّة مكتملة لا تندرج تحت وحدة أكبر منها.

ويقصد النحاة بكونها مستقلّة أنّها ليست جزءاً تركيبيّاً من بنية عامليّة أكبر منها. يقول ابن هشام في توضيحه لإحدى الآيات: "وذلك لأنّه (المعترض) لا يعدّ ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾[٦] جملة؛ لأنّها حال مرتبطة بعاملها، وليست مستقلّة برأسها"[٧]. وبذا يكون لدينا المعادلة التالية: **الجملة المستقلّة = الجملة التي لا محلّ لها من الإعراب = الجملة التي ليست جزءاً من بنية عامليّة أكبر منها.**

ولا يقصدون بكونها مستقلّة أنّها منبتّة دلاليّاً عمّا يليها؛ فهذا أبعد شيء عمّا يقصدونه. إنّ اختيار ابن هشام لأمثلته آياتٍ من كتاب الله عزّ وجل في الجمل التي لها محلّ من الإعراب، والجمل التي لا محلّ لها من الإعراب، خير دليلٌ على أنّه لم يقصد بالاستقلال سوى الجانب التركيبي المباشر الذي يقوم على الترابط وفق بنية عامليّة

---

(١) عبد الجليل، حسني، **إعراب النص**: دراسة في إعراب الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب، ط(١)، دار الآفاق، القاهرة، ص(٢٩ – ٤٠).

(٢) السكّاكي، يوسف بن أبي بكر، ت(٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، **مفتاح العلوم**، ط(١)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٧٢، ص١٤١.

(٣) الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ج١، ص٢٠١.

(٤) الزمخشري، محمود بن عمر ت (٥٣٨هـ/ ١١٤٤م)، **المفصّل وبذيله المفضّل في شرح أبيات المفصّل لبدر الدين الحلبي**، ط(٢)، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٥، ص٢٤.

(٥) انظر مثلاً: يقطين، سعيد، **انفتاح النص الروائي**: النص – السياق، ط(١)، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ١٩٨٩، ص٩٣. وفضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، ط(١)، الشركة المصريّة العالميّة للنشر/ لونجمان ومكتبة لبنان، القاهرة، ١٩٩٦، ص٢٩٥. وعيّاشي، منذر، **الكتابة الثانية فاتحة المتعة**، ط(١)، المركز الثقافيّ العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ١٩٩٨، ص١١٨.

(٦) **﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾** جزء من الآية (٩٥) من سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: **﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾**.

(٧) ابن هشام، **مغني اللّبيب**، ص٤٩١.

مباشرة. ولم يقصد الترابط الدلالي؛ فالترابط الدلالي بين آيات الكتاب الكريم ليس محلّ سؤال عند أحد من الباحثين، بل محلّ السؤال كان دائماً الآليات والطرائق التي تمّ بها هذا الترابط.

وللتدليل على هذا، يمكننا أن ننظر في الجملة التي جعلها أبو حيّان مثلاً للجملة الاستئنافيّة في النص الذي أوردناه قبلاً: "مات فلان رحمه الله"؛ فالجملة "رحمه الله" استئنافيّة منقطعة عمّا قبلها عامليّاً؛ ولذا فلا محلّ لها من الإعراب، وهي بهذا مستقلّة. مع أنّها مرتبطة دلاليّاً وتركيبيّاً بما قبلها؛ فالهاء في "رحمه" تحيل إلى "فلان" وهو المسند إليه في الجملة الأولى، والكلام متّصل دلاليّاً؛ فالحديث يدور عن "فلان" في الجملتين. وإذا كانت الأولى إخباراً عن موته؛ فالثانية دعاءٌ له بالرحمة. وبينهما بنية كبرى مشتركة أو جامع كما يسمّيه البلاغيّون(١)، أو وقائع متعالقة كما يسمّيها علماء النص(٢).

إنّ استقلال الجملة الابتدائيّة يبدو غاية في المنطقيّة؛ فهي بداية الخطاب، وغيرها يبنى عليها ولا تبنى هي على كلام قبلها. أمّا الجملة الاستئنافيّة فإنّ انقطاعها التركيبي لا يبدو بمثل هذه البدهيّة؛ فهي مسبوقة بكلام قبلها، والوضع الطبيعي أنّ الكلام في درج النص مبنيّ على ما قبله. ولذلك توسّل النحاة إلى تبيّنه عن طريق علامات خاصّة، ومنها أدوات الابتداء.

ويقترح أحد الباحثين تعريف الجملة الابتدائيّة بأنّها "التي يبدأ بها الكلام في النص ابتداءً محضاً. وهي تركيب إسنادي تامّ مستقلّ بنفسه مبنى ومعنى، يحسن السكوت عليه، ولا يحتوي على أي عنصر يدلّ على وجود جملة أو وحدة إسناديّة قبلها؛ فهي لا حاكمة ولا محكومة، ويمكن أن تكون هذه الجملة اسميّة أو فعليّة، بسيطة أو مركّبة، مثبتة أو منفيّة، خبريّة أم إنشائيّة، مؤكّدة أو غير مؤكّدة، ولا وظيفة نحويّة تؤدّيها في السياق"(٣).

ولا نوافقه على الجزء الأخير من هذا التعريف، إلاّ إذا كان يقصد بالوظيفة النحويّة الوظيفة العامليّة؛ فالنحو له وظائف كثيرة تتعدّى الوظيفة العامليّة؛ فمن وظائفه اقتراح التراكيب المعبّرة عن المعنى المراد، ومن وظائفه اقتراح ترتيب هذه التراكيب في سلسلة الكلام، ومن وظائفه اقتراح طرق التعالق بين هذه التراكيب. والنحو بهذا المعنى يضع قيوداً على تجاور الجمل تشبه تلك التي توضع بين المفردات. ومن ثمّ يصبح للجملة الابتدائيّة – بهذا الفهم – وظائف نحويّة كبيرة؛ فهي التي تتحكّم بسيرورة النص كلّه بعدها. وللتمثيل على هذا يمكننا أن نضرب المثال التالي:

نموذج (١): "يوشك الفجر أن يلوح، أشعة الشمس الهادئة تتسلّل برفق، صوت المؤذّن ينساب عذباً عبر المكان، ...".

نموذج (٢): "يوشك الفجر أن يلوح، يعدّ السرطان من أكثر الأمراض فتكاً بالإنسان، وتشير التقارير إلى ارتفاع حدّة الأزمة المالية العالمية،...".

إن الجملة الابتدائيّة "يوشك الفجر أن يلوح" في النموذج الأوّل تتّسق تركيبيّاً ودلاليّاً مع ما جاورها من جمل. فيما هي ليست كذلك في النموذج الثاني. إن تحكّم الجملة الابتدائيّة بما يمكن أن يجاورها من جمل النص وظيفة نحويّة بامتياز، بالمعنى الواسع لعلم النحو الذي يتّصل "بصحّة تعلّق الكلم بعضها ببعض"(٤).

---

(١) انظر: السكّاكي، **مفتاح العلوم**، ص١٠٩.

(2) Van Dijk.T.A., **Text and context**, Longman, London, 1977, p.288.

(٣) بومعزة، رابح، **الجملة في القرآن الكريم**: صورها وتوجّهها البياني، ط(١)،دار ومؤسّسة رسلان،دمشق، ٢٠٠٨، ص٦٠.

(٤) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص٤.

إن عالَم النص – وفقاً لهذه الرؤية – مبنيّ على مجموعة من الوحدات المستقلّة، تبدأ بالجملة الابتدائيّة، وبعد ذلك يكون "القطع والاستئناف عمليّات يقوم بها المتكلّم متى انتقل من بنية عامليّة إلى أخرى مستقلّة عنها"(١)؛ فعالَم النص يتشكّل تركيبيّاً من تضافر هذه الجمل المستقلّة، وتختفي من هيكليّة النص المجرّدة الجمل التي لها محلّ من الإعراب؛ إذ هي منضوية تحت جمل أخرى ضمن بنية عامليّة لأنّها غير مستقلّة.

ويترابط عالَم النص أو جمله المستقلّة (ومنها الجملة الابتدائيّة) في إطار عالم الدلالة الرحيب، عن طريق علاقات فصّل علماؤنا القدامى في وصف بعضها في مباحث متخصّصة مثل "باب الفصل والوصل". وقدّم علماء النص المحدثون مقترحات جديرة بالتنويه في هذا المجال. وهذا يفسّر اعتبار النص عند بعض علمائه "وحدة دلاليّة لا نحويّة"(٢)؛ إذ إنّ النحو بعلاقاته التركيبيّة المباشرة يعمل بكفاءة داخل الحيّز المغلق المسمّى "الجملة"، ثم يعمل بالتعاضد مع المستويين الدلالي والتداولي فيما يتّصل بالعلاقة بين الجمل المستقلّة المشكّلة لعالم النص؛ فكلّ جملة مستقلّة في النص مغلقة على نفسها عامليّاً، ومنفتحة على غيرها من أجزائه تركيبيّاً ودلاليّاً وتداوليّاً. إنّ استقلاليّة الجملة، أو عدم وجود محلّ من الإعراب لها، يعزّز فكرة عالم النص المكتمل والمغلق ولا يعارضها، ويفتح الباب واسعاً أمام علاقات من مستويات متنوّعة تعمل على إنتاج التأليف بين مكوّنات النص أو جمله المستقلّة.

ولعلّ الجرجاني قد تميّز عن غيره بالحديث عن الطرائق التي تتّصل بها جملة لا محلّ لها من الإعراب مع جملة تليها لا محلّ لها من الإعراب. يقول: "والذي يَشْكُلُ أمره هو الضرب الثاني، وذلك أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى، كقولك: "زيدٌ قائمٌ وعمرو قاعد"، و"العلم حسنٌ والجهل قبيح". لا سبيل لنا إلى أن ندّعي أنّ الواو أشركت الثانية في إعراب قد وجب للأولى بوجه من الوجوه. وإذا كان كذلك فينبغي أن تعلم المطلوب من هذا العطف والمغزى فيه"(٣).

ويقترح الجرجاني البحث عن جامع بين الجملتين يسمح بوجود العطف بينهما، من مثل اشتراكهما في مرجعيّة واحدة بالنسبة للمتلقّي، أو وجود مناسبة أو تعلّق دلالي بينهما، ويقول: "وجملة الأمر أنّها لا تجيء (واو العطف بين الجملتين المستقلّتين) حتّى يكون المعنى في هذه الجملة لَفْقاً لمعنى في الأخرى ومضامّاً له"(٤). وكما عالج ترابط الجملتين المستقلّتين المتعاطفتين، فإنّه قد عالج ترابط الجملتين المستقلّتين غير المتعاطفتين، في موضع آخر(٥).

إنّ فكرة الموضع والموقع التي ذكرها الجرجاني(٦)، هي التي تتحكّم بكلّ ما يتّصل بالجملة الابتدائيّة؛ فالاعتبار الرئيس في كونها ابتدائيّة هو موقعها ورتبتها في تسلسل الخطاب؛ فهي سابقة لكلّ جمل النص زمانيّاً، وهي الأولى في الخطاب موقعيّاً. وهذا الموقع يحكم عليها بأن لا تقوم بأيّ ضرب من التعليق، سواء ما كان منه تعليقاً قائماً على الإعراب أو على مُطلق التركّب. فغيرها يركّب إليها ولا تركّب هي إلى غيرها، وهذا الموضع من الخطاب له أحكامه وقواعده، فيجوز فيه استخدام بعض الأدوات دون بعض؛ ويستخلص أحد الباحثين، من خلال نص لسيبويه، أنّ من خصائص الجملة الابتدائيّة ألاّ يرد في أولها (لكنْ، وبل)، وما أشبههما من أدوات تجعل الكلام

---

(١) الشاوش، **أصول تحليل الخطاب**، ج١، ص٢٥٧.

(2) Halliday (M.A.K) & Ruqaiya Hassan, **Cohesion in English language**,Longman, London, 1976, p.8.

(٣) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص٢٢٣.

(٤) **المصدر السابق**، ص٢٢٥.

(٥) **المصدر السابق**، ص٢٢٦.

(٦) يرى الجرجاني أنّه ليس للوجه من معاني النحو قيمة مطلقة، بل إنّ قيمته تتحدّد بأمرين اثنين، هما: المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، والموضع والموقع بالنسبة إلى سابقه ولاحقه. وأن مزيّة التركيب إنما يستمدّها من الموقع. انظر: دلائل الإعجاز، ص٨٧.

مفتقراً إلى كلام يسبقه[١]. ونضيف بأنّ استخدام أيّ تركيب معها، لا يتّفق وفكرة الابتدائيّة، وما تقوم به من وظائف، يعدّ محظوراً. فيجب أن توضع هذه الجملة وضعاً لا يحتاج فيه إلى ما قبله، أو بعبارة الجرجاني: "أن يؤتى بها مأتى ما ليس قبله كلام"[٢].

ويمكن أن يبنى على كلام الجرجاني، من أنّ المزيّة تكون بحسب الموقع والموضع[٣]، أنّ الجملة الابتدائيّة، بسبب موضعها في النص، لها مزايا ليست لسواها من جمل النص؛ فقد يكون فيها الفعل الأوّل في النص الذي يتحكّم في تشكيل البنية الزمانيّة للنصّ كلّه، كما قد يكون فيها الزمان الإشاري الأوّل غالباً، ويكون فيها العنصر الإشاري الأوّل الذي يحكم العناصر الإحاليّة المتعلّقة به كلّها. وقد أشار سعيد بحيري إلى جانبٍ من هذه الوجوه في أهميّة الجملة الابتدائيّة في النص[٤]. كما أنّها وثيقة الصلة بالعنوان، وهو أحد المفاتيح المهمّة في فك مغاليق النص. كلّ ذلك يجعلها تتحكّم في اللاحق لها من جمل الخطاب.

إنّ نصّ النحاة على هذه الجملة تحديداً، بموقعها الخاص في صدر الخطاب، يدلّ على أن تصوّرهم للنص يقوم على الخطيّة والتعاقب بين وحدات الخطاب، وهذا التعاقب له أكبر الأثر في تشكيل البنية الدلاليّة للنص، يقول الجرجاني: "لمّا كانت المعاني إنما تُتبيَّن بالألفاظ، وكان لا سبيل للمرتّب لها والجامع شملها إلى أن يعلمك ما صنع في ترتيبها بفكره إلاّ بترتيب الألفاظ في نطقه"[٥].

وإذا كان كلّ جملة يشترط فيها الفائدة، فإنّه من الطبيعي للجملة التي يبتدأ بها الخطاب، وتحتلّ المركز الأوّل في عالم النص، أن تتحقّق بها فائدة خاصّة تتميّز بها عن جمل النصّ كافّة. بل إنّ فائدتها ذات طبيعة انتشاريّة تراكميّة؛ فهي تمتدّ لتشمل النص كلّه. وهي تشبه، في عملها ووظيفتها، النواة المخصّبة، وما تلبث هذه النواة "أن تتحوّل خلال العمليّة الإبداعيّة إلى جنين، ومن ثمّ إلى كيان كامل، له رأس ويدٍ، وقوام، ..." [٦]. أو هي تشبه الخليّة الأولى التي تعدّ منطلق أعظم الكائنات الحيّة، وتتضاعف هذه الخلية الواحدة من حيث العدد، وتتنّوع من حيث الوظائف، فتبلغ الملايين والأطنان، وكذا "كان منطلق النص، من حيث التركيب، لفظاً واحداً تتعلّق به ألفاظ أخرى لتكوين الجملة، وهذه تتعدّد وتتنوّع وظائفها لتكوّن النص، وهكذا. والمنطلق مهمّ جدّاً في تأسيس كل شيء... إذ يمثّل المَعْلَمَ الأصلي الذي هو أسٌّ لكل لاحق"[٧]، وهذا هو شأن الجملة الابتدائيّة. ويمكن تمثيل تولّدات النص من جملته الأولى عبر الشكل التالي:

مسند + مسند إليه ± متمّمات = ج١ ← **يتولّد عنها** ← **ج٢ + ج٣ + ج٤.....+ج ن** ← **يتولّد عنها** ← **نص**

إنّ الجملة الأولى مكتملة نحويّاً، وهي بهذا المعنى مستقلّة من ناحية التركيب، لكنها لا تنغلق على نفسها، فهي منطلقٌ في كلِّ تشكّلات النص بعد ذلك. وهي تتّصل مع الجمل التي تليها بعلاقاتٍ تخالف في نوعها العلاقات

(١) الشاوش، **أصول تحليل الخطاب**، ج١، ص٣٣٧.
(٢) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص٢٣٦.
(٣) **المصدر السابق**، ص٨٨.
(٤) بحيري، سعيد، **دراسات لغويّة تطبيقيّة في العلاقة بين البنية والدلالة**، ط(١)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٤٥.
(٥) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص٦٤.
(٦) النصير، ياسين، **الاستهلال:** فنّ البدايات في النص الأدبي،ط(١)،دار الشؤون الثقافيّة العامّة، بغداد،١٩٩٣، ص٦٧.
(٧) الزناد، الأزهر، **نسيج النص**، ط(١)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٣، ص٦٧.

التي تحكم أجزاء الجملة الواحدة. وهذه العلاقات انتشاريّة أفقيّة تضيف جديداً من حيث الإخبار أو البيان، وترصف الجملة إلى جانب الأخرى وفقاً لهذه العلاقات، لتكوّن عالماً ممتدّاً هو عالم النص.

ب. سمات الجملة الابتدائيّة الناجحة:

حظيت الجملة الابتدائيّة عند البلاغيّين بعناية بالغة، فقلّما نجد كتاباً بلاغيّاً لا يذكرها. ولعلّ الجاحظ هو أوّل من ذكرها منهم(١). ولا ترد عندهم "الجملة الابتدائيّة" بهذا الاسم، وإنّما ترد تحت عناوين أخرى، مثل: "حسن الابتداءات، و"براعة الاستهلال"، و"المطالع"، و"المبادي"، و"حسن الافتتاح"، و"المبدأ"، و"الافتتاحات"(٢).

إنّ الملاحظة الأولى التي ينبغي الوقوف عليها هنا، أن البلاغيّين لم يتوقّفوا عند مطلق الجملة الابتدائيّة كما فعل النحاة، بل عند جملة ابتدائيّة بعينها هي جملة الابتداء المميّزة. وإذا مرّ عندهم مثال لابتداء ذميم أو غير مقبول. فإنّما كان في معرض الإشارة إلى النموذج الآخر وهو الاستهلال البارع. فوصف الجملة الابتدائيّة عند النحاة ينطبق على كل جملة ابتدائيّة بمعزل عن تميّزها أو عدمه، وهذا يتّسق مع نظاميّة الدرس النحوي في العربيّة، أمّا البلاغة، فغرضها البحث عن أحسن مواصفات التشكيل الكلامي الذي يجعله مُحقّقاً لمقتضى الحال، ويتّسق معه الحديث عن الابتداء الناجح دون غيره من ضروب الابتداءات. وقد فصّلوا في خصائص الجملة الابتدائيّة، وأهمّيتها ووظائفها وشروط نجاحها، فيما أجمل النحاة ذلك في كلمة واحدة هي "الفائدة".

---

(١) الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، ت(٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، **البيان والتبيين**، تحقيق عبدالسلام هارون، ط(٥)، مكتبة الخانجي، ١٩٨٥، ج١، ص١١٦.

(٢) هذه نماذج من عناوين الأبواب المتّصلة بالابتداء في كتب البلاغة ومصادرها:

- (حسن الابتداءات). ابن المعتز، عبد الله، ت(٢٩٦هـ/ ٩٠٨م)، **البديع**، اعتنى بنشره وتعليق المقدّمة والفهارس أغناطيوس كراتشقوفسكي، ط(٢)، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٩، ص٧٥.
- (أحسن ما ابتدأ به شاعرٌ قصيدته) الحاتمي، أبو علي محمد بن الحسن المظفّر، ت(٣٨٨هـ/ ٩٩٨م). **حلية المحاضرة في صناعة الشعر**، تحقيق د. جعفر الكناني، ط(١)، بغداد، ١٩٧٩، ج١، ص٢٠٥.
- (في ذكر المبادئ)، العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، ت(٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م)، **كتاب الصناعتين**، تحقيق د. مفيد قميحة، ط(١)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨١،ص٤٥١.
- (باب المبدأ والخروج والنهاية وحسن الفواتح). ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، ت(٤٥٦هـ /١٠٦٣م)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد قرقزان، ط(١)، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨، ج١، ص٢١٧.
- (براعة الاستهلال). التبريزي ، الخطيب أبو زكريّا يحيى بن علي، ت(٥١٢هـ/ ١١١٨م)، **الكافي في العروض والقوافي**، تحقيق الحسّاني حسن عبد الله، ط(١)، مكتبة الخانجي، ١٩٧٧، ص١٨٩.
- (المبادئ والمطالع) ابن منقذ، أسامة بن مرشد بن علي، ت(٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)، **البديع في نقد الشعر**، تحقيق وتقديم عبد .آ.علي مهنا، ط(١)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٧، ص٤٠١.
- (المبادئ والافتتاحات)، ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري، ت(٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م)، **المثل السائر في أدب الكاتب والشعر**، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، د. ت، ج٣، ص٩٦.
- (حسن الابتداءات). ابن أبي الإصبع، زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد المصري، ت(٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، **بديع القرآن**، تحقيق د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي، ط(١)، منشورات المجمع العلمي العراقي، ٢٠٠٦، ص١٥٢.
- (حسن الابتداء وبراعة الاستهلال)، ابن مالك، ابن الناظم بدر الدين محمد بن عبد الله بن مالك، ت(٦٨٦هـ/ ١٢٩٧م)، **المصباح في المعاني والبيان والبديع**، تحقيق حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب، القاهرة، د. ت، ص٢٦٩.
- (الابتداء والمطلع).القزويني،الخطيب جمال الدين محمد بن عبد الرحمن، ت(٧٣٩هـ/١٣٢٨م):
  - **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط(٥)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣، ص٥٩١.
  - **التلخيص**، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت، ص٤٢٩.
- (براعة المطلع وحسن الابتداء) الحلّي، صفي الدين عبد العزيز، ت(٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م)، **شرح الكافية البديعيّة في علوم البلاغة ومحاسن البديع**، تحقيق نسيب نشاوي، مجمع اللّغة العربيّة، دمشق، ١٩٨٣، ص(٥٧- ٥٩).

عدّ البلاغيّون الجملة الابتدائيّة، بسبب موضعها الذي تحتلّه في فاتحة الخطاب، من أهم أجزاء النص؛ فقد ذكروا أنّ الأديب ينبغي أن يتأنّق في ثلاثة مواضع من كلامه حتّى تكون: أعذب لفظاً، وأحسن سبكاً. وأصحّ معنى. وهذه المواضع هي: الابتداء، والتخلّص، والانتهاء(١).

ويمكن أن نقترح اسم "**النص الأبتر**" على ذلك النص الذي لا يهيّأ له مفتتحٌ مناسب؛ فابن رشيق يعيب من الشعراء من يقفز إلى موضوعه من غير أن يبتدئ ابتداءً مناسباً، يقول: "ومن الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطاً من النسيب، بل يهجم على ما يريده مكافحة، ويتناوله مصافحة، وذلك عندهم هو: الوثب، والبتر، والقطع، والكسع، والاقتضاب. كل ذلك يقال. والقصيدة إذا كانت على تلك الحال بتراء"(٢).

فالجملة الابتدائيّة الناجحة هي التي تقي النص من البتر، وتجعله ينساب نحو المتلقّي دون استئذان. ولا يشفع للمنشئ إجادة بقيّة أجزاء النص إذا كان ابتداؤه ذميماً. يقول ابن رشيق: "ويستقبح أن لا يجيد المنشئ الابتداء ولا يتكلّف له، ثمّ يجيد باقي القصيدة"(٣).

ولذا عدّت معيار تفاضل الأدباء والمنشئين، وسبباً رئيساً في نجاح رسائلهم اللّغويّة. جاء في الصناعتين: "سئل بعضهم عن أحذق الشعراء فقال: من يتفقّد الابتداء والمقطع"(٤). وهي دليلٌ على قدرة المرسل على الإبانة عن غرضه، وقد نقل عن بعض الكتّاب قوله: "أحسنوا الابتداءات فإنّها دلائل البيان"(٥). ويعلّل العسكري هذه الأهميّة بقوله: "والابتداء أوّل ما يقع في السمع من كلامك، والمقطع آخر ما يبقى في النفس من قولك، فينبغي أن يكونا جميعاً مونقين"(٦).

*** استراتيجيّات الوهلة الأولى:**

ويشكّل المتلقّي أهمّ العناصر التي تقرّر طبيعة الجملة الابتدائيّة وشكلها ومضمونها. كما إنّه يعدّ أهمّ العناصر التي تقرّر فشل الجملة الابتدائيّة أو نجاحها.

فالابتداء أوّل جزء يلامس سمع المتلقّي، ويترك عنده الانطباع الأوّل عن الرسالة اللّغويّة كلّها، بل وعن المرسل أيضاً. فإمّا أن يتابع المتلقّي الرسالة، وإمّا أن ينصرف عنها. يقول أبو هلال: "وإذا كان الابتداء حسناً بديعاً، ومليحاً رشيقاً، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده، من الكلام... والله أعلم بكتابه، ولهذا جعل أكثر الابتداءات بالحمد لله، لأنّ النفوس تتشوّق للثناء عليه، فهو داعية إلى الاستماع"(٧). فإذا أراد المُرْسِل أن يُقْبِل المتلقّي عليه، وأن يتابعه بحواسّه كلّها إلى منتهى الرسالة، اختار مفتتحاً جيداً. وإذا أراد أن ينفضّ المتلقّي عنه، وأن ينهي تواصله اللّغوي معه بأقصر مدّة ممكنة، اختار مفتتحاً ذميماً مملاً. ولعلّ القصّة التي أوردها ابن رشيق حول الشاعر ديك الجن ودعبل بن علي خير تمثيل على ما نقول. وفيها أنّ ديك الجن كان راغباً عن لقاء دعبل هذا خوفاً من قوارصه ومشارّته(*)، فلمّا اشتدّ في طلبه واضطرّ إلى لقائه وتناشدا، أنشد ديك الجن ابتداء قصيدة:

كأنّها ما كأنّهُ خلل الخلـ لَة وَقْفُ الهَلُوكِ إذْ بَغَما

---

(١) القزويني، **التلخيص**، ص٤٢٩.
(٢) ابن رشيق، **العمدة**، ج١، ص٤٠٦.
(٣) **المصدر السابق**، ج١، ص٤٠٧.
(٤) أبو هلال العسكري، **كتاب الصناعتين**، ص٤٩٣.
(٥) **المصدر السابق**، ص٤٨٩.
(٦) **المصدر السابق**، ص٤٩٤.
(٧) أبو هلال العسكري، **كتاب الصناعتين**، ص٤٩٦.
(*) المشارّة: مُفَاعلة من الشر، بمعنى المخاصمة. ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (شر).

قال له دعبل: "أمسك عليك. فوالله ما ظننتك تتمّ البيت إلاّ وقد غشي عليك، أو تشكّيت فكيّك، ولكأنّك في جهنّم تخاطب الزبانية، أو تخبّطك الشيطان من المس"(١). فهذا مفتتح قبيح – كما وصفه ابن رشيق(٢) – أراد صاحبه أن ينهي التواصل اللّغوي بأقصر مدّة ممكنة.

والجملة الابتدائيّة تترك أكبر الأثر في نفس المتلقّي؛ ولهذا حضّ البلاغيّون الأدباء والمنشئين أن يعتنوا بها أشدّ الاعتناء، وألاّ يضمّنوها شيئاً يصرف عنها المتلقّي نفسيّاً. قال بعض الكتّاب: "ينبغي للشاعر أن يتحرّز في ابتداءاته ممّا يتطيّر منه ويستحقر من الكلام، خاصّة في المدائح والتهاني"(٣).

وهذا النص الموجز فيه أمور، من أبرزها: خطورة الابتداء وأهميّته في نجاح الرسالة اللّغويّة أو فشلها، وأنّ الابتداء الناجح ينبغي أن يكون جذّاباً. وفيه إشارة إلى الأثر النفسي للابتداء؛ فالابتداء الناجح يتلاءم مع أحوال المتلقّي: فرحاً، وحزناً، وغضباً، وتفاؤلاً، و... . وعبارة "ممّا يتطيّر منه" تقتضي أن يكون المرسل على معرفة تامّة بالمتلقّي: ما يفرحه، وما يزعجه، وما يثير تشاؤمه. وإذا كان على غير معرفة به فيستحسن أن ينتقي عباراته بأناة وانتباه شديدين، حتّى لا تترك انطباعاً خاطئاً. وفي النص أيضاً أنّ الابتداء الناجح يتّسق وموضوع الرسالة اللّغويّة؛ فليس الابتداء في موضوع المدح مثله في التهاني والمواساة وغيره، فلكلّ مقام مقال.

كما أنّ الابتداء الناجح يجب أن يتّسق مع السياق الاجتماعي عموماً، وأن يتّسق مع العرف الاجتماعي. وإذا كان هناك ألفاظ تخرق هذا العرف، أو تُستَكْرَهُ عند الجماعة اللّغويّة، أو عند المتلقّي حسبُ، فينبغي اجتنابها. وتدلّ لفظه "يتحرّز"، وليس "يحترز" التي استخدمها صاحب القول، أنّ على المرسل أن يبذل جهداً ذهنيّاً ولغويّاً في اختيار جملته الابتدائيّة، لخطورتها في إنجاح الرسالة اللّغويّة أو فشلها.

وقد أورد البلاغيّون في كتبهم قصصاً دالّة على أهميّة الجملة الابتدائيّة وأثرها على المتلقّي، بل لعلّ بعضهم بالغ في الإشارة إلى تأثيرها في تغيير سيرورة الأحداث. ومنه ما أوردوه عن أثر مطلع قصيدة أبي نواس في نكبة البرامكة، وأثر مطلع قصيدة إسحاق بن إبراهيم أمام المعتصم في احتراق قصره بعد أسبوع من إلقاء القصيدة(٤).

وفي استراتيجيّات الوهلة الأولى نتوقّف عند ما يمكن أن نسمّيه استراتيجيّة "**القفل والمفتاح**". وتتّصل بنوعين من الوظائف التي تؤدّيها الجملة الابتدائيّة: الوظائف النصيّة، والوظائف التداوليّة. وتعتمد هذه الاستراتيجيّة على حسن إمساك المرسل بناصية الجملة الابتدائيّة؛ يقول ابن رشيق: "إنّ الشعر قفل أوّله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجوّد ابتداء شعره؛ فإنّه أوّل ما يقرع السمع، وبه يستدلّ على ما عنده من أوّل وهلة"(٥).

إنّ الجملة الأولى هي فاتحة التواصل بين طرفين، واستراتيجيّة "القفل والمفتاح" ذات شقّين: شقٌّ خاص بالمرسل فإنّ عليه أن يعتني بالجملة الابتدائيّة أشدّ الاعتناء، لأنّها أداته في جذب اهتمام المتلقّي، ولأنّ اللحظة الأولى هي الفاصلة في كشف ما لديه من: مضمون، أو مهارة، أو عرض يستحقّ المتابعة. وعليه أن يفاضل بين عدد من

(١) ابن رشيق القيرواني، **العمدة**، ج١، ص٣٩١.
(٢) **المصدر السابق**، ج١، ص٣٩٢.
(٣) أسامة بن منقذ، **البديع في نقد الشعر**، ص٤٠١.
(٤) أبو هلال العسكري، **كتاب الصناعتين**، ص٤٨٩.
(٥) ابن رشيق القيرواني، **العمدة**، ص٣٨٩.

الخيارات اللّغويّة والأسلوبيّة قبل أن ينتقي جملة فاتحته، وأن يجري عليها من التعديلات ما يجعلها مناسبة ومقبولة ومؤثّرة وناجحة، كلّ هذا نجده في كلمة "يجوّد".

وشقٌ خاص بالمتلقّي، فإنّها أداته في فتح مغاليق النص واكتشافه. وعليه أن يستعمل طاقاته اللّغويّة ومهاراته في فك رموزها واستيعاب مغزاها. إنّ عليه أن يستخدم مفتاح الجملة الابتدائيّة بمهارة، وبعدها يصبح النص طوع يديه. وبعدها يمكنه أن يحكم على المرسل والرسالة معاً. وهذا الحكم قد يدفعه لاتّخاذ موقف سلوكي ما تجاه المرسل: موافقة، أو معارضة، أو احتجاجاً، أو... .

إنّ انفتاح النص للمتلقّي وظيفة نصيّة تداوليّة، تؤدّيها الجملة الابتدائيّة بكفاءة، وبها يصبح النص مكشوفاً: مرسِلاً ومضموناً، وبها يصبح المتلقّي واعياً بالإجراءات النصيّة التي عليه القيام بها.

وليس بعيداً عنه، ما أشار به ابن قيّم الجوزيّة من أنّ "حسن المطالع والمبادي دليلٌ على جودة البيان، وبلوغ المعاني إلى الأذهان، فإنّه أوّل شيء يدخل الأذن، وأوّل معنى يصل إلى القلب، وأوّل ميدان يجول فيه تدبّر العقل"[1].

وفي هذا النص أيضاً عمليّتان مزدوجتان:

الأولى: وتتعلّق بالتفاعلات النفسيّة والذهنيّة والفكريّة في نفس المرسل وعقله، وما يتمخّض عنها من إجراءات لغويّة. إنّ معرفة المرسل بموضوعه وتمكّنه منه يمكّنان من اختياره مبتدأً جيّداً. وجملته الأولى تكشف عن قدراته اللّغويّة (جودة البيان) كما أنّها غالباً ما تكشف عن جوانب مختلفة من شخصيّته، وثقته بنفسه، وقوّة موقفه، وتميّزه.

والثانية: وتتحدّث عن التفاعلات النفسيّة والذهنيّة في نفس المتلقّي وعقله، وما يترتّب عليها من إجراءات وسلوك؛ فالمتلقّي يستقبل الجملة الابتدائيّة صوتاً، وإذا كان الخطاب مكتوباً فيمكننا أن نفترض قناة أخرى مثل العين؛ فتصبح صورة الرسالة مرئيّة بعد أن كانت مسموعة، ومن ثمّ يتحوّل الصوت أو الصورة إلى معنى يصل القلب، وفي هذا إشارة إلى أنّ البعد النفسي أو العاطفي لأثر جملة الابتداء يسبق الأثر الفكري أو العقلي. ثم يتابع المعنى رحلته إلى العقل، حيث تبدأ مرحلة التدبّر؛ فالجملة الابتدائيّة "أوّل ميدان يجول فيه تدبّر العقل". ولا ريب أنّ هذا التدبّر سيترجم إلى موقف ما: ربّما تصديق، أو إقرار، أو انبهار، أو تكذيب. وربّما اتّصال أو انقطاع. وربّما نفورٌ أو إقبال.

فوظائف جملة الابتداء متعدّدة: وظيفة نصيّة تعمل على انفتاح النص للقارئ، ووظيفة تداوليّة، وتشمل الوظيفة النفسيّة التي تعمل على تحريك انفعالات المتلقّي وعواطفه، والوظيفة الفكريّة والعقليّة التي تدفع المتلقّي إلى التدبّر في الرسالة عبر نافذة الجملة الأولى ومضمونها وطبيعتها، وهي تشكّل حدثاً لغوياً يعمل على تغيير مواقف الآخرين وتوقّع سلوكاتهم أو تعديلها. وبذا تكون جودة الابتداء من أهمّ أسباب نجاح الرسالة اللّغويّة كلّها. والشكل التالي يصف أثر الجملة الابتدائيّة وفق الرؤية السابقة:

---

(١) ابن قيّم الجوزيّة، الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، ت(٧٥١هـ/١٣٥٠م)، **الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان**، ط(١)، مكتبة المتنبّي، القاهرة، د. ت، ص١٥٥.

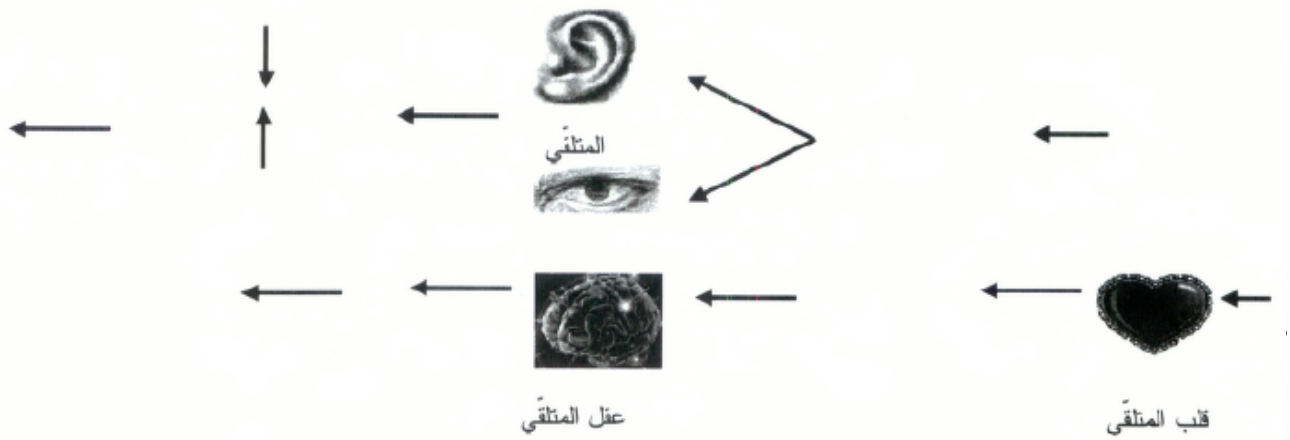

		(رسالة صوتيّة)		الصوت يتحوّل إلى
المرسل		جملة ابتدائيّة		معنى
		(رسالة مكتوبة)		الصورة تتحوّل إلى
موقف نفسي	تدبّر		موقف فكري وسلوكي	
(انشراح)			(امتناع)	
(تطيّر)			(تصديق)	
(تفاؤل)			(إقرار)	
(حزن)			(.....)	
(.....)				

وفي استراتيجيّات الوهلة الأولى يمكننا أن نتوقّف عند ما أسميناه "**استراتيجيّة المشاكلة**". وقوامها: أنّ المتلقّي هو قلب العمليّات المتّصلة بالجملة الابتدائيّة؛ ولذا فالابتداء الجيّد يتّسق وجملة أحوال هذا المتلقّي وطبائعه ومركزه الاجتماعي. بل ويأخذ بعين الاعتبار المحطّات الخاصّة في حياته، من مثل تلك التي تستدعي تهنئة أو مواساة. وعلى المنشئ أن يحسب حساباً كافياً لكلّ لفظة وكل تركيب في جملة الابتداء. والقصص المرويّة في أثر ابتداءات بعض الشعراء على المتلقّين كثيرة، ومنها ما رواه ابن رشيق من غضب عبد الملك بن مروان من ابتداء جرير "أتصحو أم فؤادك غير صاح". وعقّب عليها ابن رشيق تعقيباً ذكيّاً قال: "كأنّ (عبد الملك) استثقل هذه المواجهة، وإلاّ فقد علم أنّ الشاعر إنّما خاطب نفسه"[١]. ومنها غضب عبد الملك أيضاً من ابتداء ذي الرمّة: "ما بال عينك منها الماء ينسكب"، وكانت عين عبد الملك تدمع، فتوهّم أنّه خاطبه، فمقته وأمر بإخراجه[٢]. ومنها غضب هشام بن عبد الملك من ابتداء أبي النجم:

(١) ابن رشيق القيرواني، **العمدة**، ص٣٩٤.
(٢) **المصدر السابق**، ص٣٩٤.

صَـفْواء قـد كـادت ولَمّـا تفعـلِ كأنّهـا فـي الأفـق عـينُ الأحـولِ

ج ج

وكان هشام أحول، فأمر بأبي النجم فحجب عنه مدّة، بعد أن كان من خاصّته[١]. وقال ابن رشيق معلّقاً على هذه الحكايات وغيرها: "والفطن الحاذق يختار للأوقات ما شاكلها، وينظر في أحوال المخاطبين فيقصد محابّهم"[٢].

وفي استراتيجية المشاكلة، التي قبسناها من قولة ابن رشيق: "يختار للأوقات ما شاكلها"، يمكننا أن نلمح عناصرَ متعدّدة تتحكّم في جملة الابتداء، منها: سياق الحال بكلّ تفاصيله، ومن ضمنه الوقت والظرف الذي تلقى فيه الرسالة اللّغويّة، وجملة أحوال المخاطَبين، وما يحبّونه وما يكرهونه. وهي ذات آثار نفسيّة وعقليّة على المتلقّي. وفي هذا الصدد يمكن ملاحظة الأفعال: "استثقل، ومقت، وتوهّم" في القصص السابقة، كما أنّها ذات تأثير على سلوكات المخاطَبين ومواقفهم، وانظر: "وأمر بإخراجه، فحجب عنه مدّة". ويمكن توظيف هذه الاستراتيجية في تطوير خطابات مختلفة، مثل: خطاب الشعوب، أو خطاب الرأي العام، وغيرها.

*** مطيّة النجاح:**

إنّ نجاح الرسالة اللّغويّة منوط بتحقيق الغرض منها. وتبدو الجملة الابتدائيّة – في الموروث البلاغي – شديدة الصلة بهذا الغرض. فهذا الجاحظ ينقل عن ابن المقفّع قوله: "ليكن في صدر كلامك دليلٌ على حاجتك"، ويعلّق الجاحظ عليه بقوله: "كأنّه يقول: فرق بين صدر خطبة النكاح، وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح، وخطبة التواهب، حتّى يكون لكلٍّ منه من ذلك صدرٌ يدلّ على عجزه، فإنّه لا خير في كلام لا يدلّ على معناك، ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت"[٣]. ويبدو الغرض في هذا النص مفتاح التحكّم في الجملة الابتدائيّة، بل في حركة النص كلّه. كما ويبدو فيه دور المرسل في صياغة الابتداء بحيث يؤدّي إلى المقصود، مع مراعاة عنصر ثالث هو الموضوع؛ فهذه العناصر، إضافة إلى المتلقّي وسياق الحال، تتحكّم في تشكيل الجملة الابتدائيّة إلى حدّ بعيد.

وعرّف التبريزي براعة الاستهلال بقوله: "أن يبتدئ بما يدلّ على غرضه"[٤]. وقال القزويني: "وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود"[٥]. وبراعة الاستهلال عند الحموي: "أن يكون مطلع القصيدة دالاً على ما بنيت عليه، مشعراً بغرض الناظم من غير تصريح، بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الذوق السليم، ويستدلّ بها على مقصده من: عتب، أو عذر، أو تنصّل، أو تهنئة، أو مدح، أو هجر، وكذلك في النثر"[٦]. بل وعقد الكلاعي فصلاً أسماه: "الإشارة في الصدور إلى الغرض المذكور"[٧]. ويقول أبو طاهر البغدادي: "ينبغي للشاعر إذا ابتدأ قصيدة مدحاً أو

---

(١) **المصدر السابق**، ص٣٩٥.

(٢) **المصدر السابق**، ص٣٩٥.

(٣) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج١، ص١١٦.

(٤) التبريزي، **الكافي**، ص٢٨٤.

(٥) القزويني، **الإيضاح**، ص٤٣١.

(٦) الحموي، أبو بكر علي بن حجة الحموي، ت(٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م)، **خزانة الأدب وغاية الأرب**،شرح عصام شعيتو، ط(١)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٧، ص٥٠٩.

(٧) الكلاعي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلي، ت(٥٤٣هـ/ ١١٤٨م)، **إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه**، تحقيق محمد رضوان الداية، ط(١)، دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥، ص٦٦ وما بعدها.

ذمّاً أو فخراً، أو وصفاً، أو غير ذلك من أفانين الشعر، ابتدأها بما يدلّ على غرضه فيها"(١). وعند حازم القرطاجنّي أنّه: "يجب أن يقدّم في الفصل ما يكون للنفس به عناية بحسب الغرض المقصود، ويتلوه الأهمّ فالأهمّ"(٢).

وفي هذه المقابسات الواضحة نجد أنّ غرض الرسالة هو مبعث كلّ إجراء يقوم به المرسل في جملته الابتدائيّة؛ فهو مبعث اختياراته التركيبيّة، وليس عليه أن يعبّر عن غرضه بطريقة مباشرة بل بالإشارة اللطيفة، وهو يفعل ذلك ببراغماتيّة واضحة؛ فاختياراته ينبغي أن تتّسق مع المتلقّي، مع مراعاة الموضوع في كلّ ذلك. وربط الرسالة بمقاصدها طرح تداولي بامتياز.

فبنائيّة الجملة الابتدائيّة تعتمد على بناء النص نفسه، وعلى الغرض منه، وعلى المتلقّي؛ فيجب أن تبنى بحيث تعكس ما بني عليه النص، مع ترتيب عناصر الرسالة بحسب أهميّتها للغرض وللمتلقّي معاً.

ويتّصل بهذا الموضوع مباشرة ما ذكروه من حكمهم بأنّه "لم يبتدئ أحدٌ من الشعراء بأحسن ممّا ابتدأ به أوس بن حجر؛ لأنّه افتتح المرثيّة بلفظ نطق به على المذهب الذي ذهب فيه في القصيدة، فأشعرك بمراده في أوّل بيت"(٣). فبناء النص كلّه يجب أن يجد له صدى في الجملة الابتدائيّة. مع الإشارة إلى الغرض إشارة لطيفة غير مباشرة. فلفظة "أشعرك" تشي بأنّ الغرض ينبغي أن يرد في جملة الابتداء كالومضة الدالّة.

وسئل بعض حذّاق الشعر عن سرّ شهرته فذكر من بين ما ذكره: "وقرطست نكت الأغراض بحسن الفواتح والخواتم، ولطف الخروج إلى المدح والثناء"(٤). وعلّق ابن رشيق على ذلك بقوله: "**وقد صدق؛ لأنّ حسن الافتتاح داعية الانشراح ومطيّة النجاح**"(٥).

فالجملة الابتدائيّة تنجح إذا عبّرت عن الأغراض بأحسن صورة، وإذا أحدثت أثراً نفسيّاً طيّباً في نفس المتلقّي، عبّر عنه ابن رشيق بـ "الانشراح". **وحينها يتحوّل الابتداء الناجح من مفتاح لقفل النص إلى مطيّة لنجاحه**. وإذا كان المفتاح يفتح لك مغاليق النص، فإنّه هنا يحملك إلى الغاية القصوى منه، وهو تحقيق غرضه. كما يكون جسراً للانتقال من مرحلة التهيئة للمتلقّي، إلى الدخول في تفاصيل الغرض الأصلي للخطاب، عبر تقنية نصيّة أسماها القائل: "لطف الخروج".

وقد أشار بعض البلاغيين إلى علاقة الأغراض بالبيئة الاجتماعيّة وأثرها في اختيار الابتداءات؛ فما يعدّ مستحبّاً مقبولاً في بيئة، قد لا يكون كذلك في بيئة أخرى. وهو أمرٌ جديرٌ بالدراسة في مجال اللسانيّات الاجتماعيّة. يقول ابن رشيق في هذا في باب "المبدأ والخروج والنهاية": "ومقاصد الناس تختلف؛ فطرائق أهل البادية ذكر الرحيل، والانتقال، وتوقّع البين، والإشفاق منه، و... وأهل الحاضرة يأتي أكثر تغزّلهم في ذكر الصدود، والهجران، والواشين، و..."(٦).

فالابتداء يخضع لتقليد المجتمع ورغباته، ويعبّر عن عاداته الراسخة وتقاليده السارية. وبهذا يمكننا أن نضيف إلى وظائف الجملة الابتدائيّة وظيفة اجتماعيّة، تعمل على وصف المرسل وبيئته اجتماعيّاً، فيكون لكل جملة

---

(١) البغدادي، أبو طاهر محمد بن حيدر ت(٥١٧هـ/ ١١٢٣م)، **قانون البلاغة في نقد النثر والشعر**، تحقيق محسن غيّاض، ط(٢)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١، ص ١١٧.

(٢) القرطاجنّي، حازم(ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، شرح وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط(١)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١، ص٢٨٩.

(٣) الحاتمي، **حلية المحاضرة**، ج١، ص٢٠٦.

(٤) ابن رشيق القيرواني، **العمدة**، ج١، ص٣٨٨.

(٥) **المصدر السابق**، ج١، ص٣٨٨.

(٦) **المصدر السابق**، ج١، ص٣٩٨.

ابتدائيّة ترجمتها الاجتماعيّة الدالّة على المرسل ومجمل ظروفه. كما يعكس الاستهلال روح العصر وأفكاره وقيمه؛ "ولمّا ثار الشعراء الصعاليك على تقاليد المجتمع الجاهلي تغيّر معنى الاستهلال عندهم، فثاروا على المقدّمة الطلليّة"(١).

*** سمات نصيّة:**

من سمات الجملة الابتدائيّة الناجحة، المتّصلة بالصياغة، الإيجاز مع جمع الأغراض. وهو ما يعرف بالتكثيف. ويدلّ عليه إجماعهم على أنّ "أحسن الابتداءات قول امرئ القيس: "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل". فقالوا: "لأنّه وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل في نصف بيت"(٢). وهو تكثيف يقوم على فعلٍ نصيٍ من المرسل: (وقف، واستوقف، وبكى، واستبكى)، يهدف إلى ضمان تفاعل المتلقّي والتأثير فيه (استوقف، واستبكى). وكلّ ذلك في حيّز نصيّ محدود "نصف بيت".

أمّا عن حجم الجملة الابتدائيّة فشرطه عندهم أن يناسب الغرض والوظيفة من غير حشو. ويكره أن يكون الحجم النصيّ المخصّص للابتداء كبيراً، فيما يشغل موضوع النص الرئيس حيّزاً نصيّاً محدوداً. يقول ابن رشيق: "ومن عيوب هذا الباب أن يكون النسيب كثيراً والمديح قليلاً، كما يصنع بعض أهل وقتنا هذا"(٣). أمّا عن حجم الجملة عند النحاة فليس له حدود إلاّ بما يجعلها مفيدة.

والناظر في كتب البلاغة يلاحظ أنّ البلاغيّين قد ضربوا الأمثلة الكثيرة على أحسن الابتداءات في الرثاء، وأحسنها في الحكمة، و..." (٤). وفي هذه الملاحظة أكثر من قضيّة:

أوّلها: أهميّة الموضوع في صناعة الجملة الابتدائيّة وصياغتها وتركيبها وبنائها، ممّا يفتح الباب واسعاً أمام العاملين في حقل تحليل الخطاب للإفادة من هذه النقطة في استخراج سمات الجملة الابتدائيّة التي تميّز كل موضوع من الموضوعات المعرفيّة المختلفة.

وثانيها: أنّ البلاغيين العرب يميلون للاعتقاد أنّ كلّ نوع من أنواع الرسائل اللّغويّة له طريقة خاصّة في فرض صيغة جملته الابتدائيّة.وأنّ الجملة الابتدائيّة لا تمتلك خصائص أسلوبيّة وتركيبيّة عامّة يمكن توظيفها في كلّ الرسائل اللّغويّة.

ومن اللّطائف إشارتهم إلى أنّ هذه الابتداءات تميّز أسلوب المنشئ، حتّى تغدو كالبصمة الأسلوبية – إن جاز التعبير– دلّ عليه قولهم: "كان عبد الحميد الكاتب لا يبتدئ بـ "لولا"، و"لا"، و"إن رأيت"(٥). بل إنّ هذه الابتداءات تعطي النصّ سمته الخاص الذي يمتاز به عن غيره من النصوص؛ ولذلك حذّر البلاغيّون من استعارة ابتداءات الآخرين، أو تقليدها، فإنّ هذا دليلٌ على ضعف المرسل والنصّ معاً. يقول ابن رشيق: "وليجتنب الشاعر: "ألا" و"خليلي" و"قد". فلا يستكثر منها في ابتدائه، فإنّها من علامات الضعف والتكلان"(٦). وبذا يتقرّر عندهم أنّ كلّ نصٍّ يصنع ابتداءه الخاص.

---

(١) ياسين النصير، **الاستهلال**، ص١٣.
(٢) أسامة بن منقذ، **البديع في نقد الشعر**، ص٤٠١.
(٣) ابن رشيق القيرواني، **العمدة**، ج١، ص٤٠٧.
(٤) انظر مثلاً: أبو هلال العسكري، **كتاب الصناعتين**، ص(٤٩١– ٤٩٥).
(٥) **المصدر السابق**، ص٤٩٣.
(٦) ابن رشيق القيرواني، **العمدة**، ص٣٢٠.

والجملة الابتدائيّة بنية خاصّة تتناسب مع موقعها في أوّل الكلام أولاً، ووظيفتها باعتبارها تحمل نوى النص كلّها ثانياً. وأنّها الموطن الأوّل للإشارة إلى غرض النص ومقصوده ثالثاً. أمّا خصائص هذه البنية فيوضحها حازم القرطاجنّي بقوله: "ولا يخلو الإبداع في المبادي من أن يكون راجعاً إلى ما يقع في الألفاظ من حسن مادّة، واستواء نسج، ولطف انتقال، وتشاكل اقتران، وإيجاز عبارة. وما جرى من ذلك ممّا يستحسن في الألفاظ، أو ما يرجع إلى المعاني من حسن محاكاة، ونفاسة مفهوم"(١).

واختيار مصطلح "النسج" –عنده– يتداخل مع مصطلح النص في جانب من جوانبه؛ فيتوفّر في مصطلح "نص" في العربيّة، وكذلك في مقابله في اللّغات الأعجميّة (Text) معنى "النسيج"؛ فالنصّ نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض"(٢). والنص، وإن تشكّل من عناصر متعدّدة، يتشكّل كلاً واحداً ذا سمات خاصّة، واستواء النسج هو تجلٍّ لهذه الكليّة وتميّز فيها.

أمّا لطف الانتقال فهو حديث مباشر عن التشكيل النصيّ، وطرائق المنشئ في إحداث التلاحم بين الأجزاء، وضرورة الترفّق والذكاء في الانتقال من الجملة الابتدائيّة إلى بقيّة أجزاء النص.

أمّا تشاكل الاقتران فهو حديث عن العلاقات النصيّة التي تقتضي وجود جامع بين الجمل يضمن تشاكلها وانسجامها، ويقتضي وجود نظام خاص منضبط للاقتران بين الجمل وأجزاء النص المتعدّدة. ومصطلح "التشاكل" يقابل مصطلح "التباين" عند اللّسانيين المحدثيّن. ويقصره (جريماس) على تشاكل المضمون(٣)، وعمّمه (راستي) ليشمل التعبير والمضمون معاً(٤)؛ أي إنّ التشاكل يتنوّع تنوّع مكوّنات الخطاب. ويقترح محمد مفتاح تعريف التشاكل بأنّه: "تنمية لنواةٍ معنويّة سلبياً أو إيجابياً، بإركام قسري أو اختياري لعناصر صوتيّة، ومعجميّة، وتركيبيّة، ومعنويّة، وتداوليّة، ضماناً لانسجام الرسالة"(٥). وإذا كنا نتحدّث عن التنمية فإنّ الجملة الابتدائيّة هي بذرة هذه التنمية؛ فهي منطلق المعنى، ومنطلق التركيب، وهي بهذا الاعتبار منطلق الانسجام النصّي وأداته في آن.

ويلقي الطيبي مزيداً من الضوء على خصائص بنية الجملة الابتدائيّة يقول: "وفي حسنه (الابتداء) شرطان: أحدهما أن يضمن معنى ما سيق الكلام لأجله، ليكون الابتداء دالاً على الانتهاء، ويسمّى براعة الاستهلال. والثاني: أن يتجنّب في المدح ما يتطيّر منه"(٦). ويمكن ملاحظة ضربين من الخصائص في جملة الابتداء عنده:

- خصائص تداوليّة: تتعلّق بمراعاة أحوال المتلقّي، ومراعاة طبيعة الموضوع. وقد سبق الحديث عنها.
- خصائص نصيّة، وهي: ملاءَمة الجملة الأولى للسياق. وملاءَمتها للغرض الذي سيق النص لأجله، وهي خصيصة تداوليّة نصيّة معاً. والترابط النصيّ ويتحقّق إذا نطقت جملة الابتداء بما دلّ عليه الانتهاء.

ويقترب من هذا ما أوردوه عن استحسان ابتداء أبي ذؤيب: "أمن المنون وريبها تتوجّع". قالوا: "وقد ابتدأ كلامه في أوّله بما دلّ على آخر غرضه"(٧). وفيه إشارة إلى اتّساق جملة الابتداء مع غرض النصّ، والإصرار على سيرورة هذا الغرض في ثنايا النصّ كلّه. وهذه السيرورة تضمن ما يسميّه علماء اللّسانيّات النصيّة بالاستمراريّة

---

(١) حازم القرطاجنّي، **منهاج البلغاء**، ص٣٢٧.
(٢) الأزهر الزناد، **نسيج النص**، ص١٢.
(٣) مفتاح،محمّد، **تحليل الخطاب الشعري(استراتيجيّة التناص)**،ط(٣)،المركز الثقافي العربي،بيروت،١٩٩٢، ص(١٩).
(٤) **المرجع السابق**،٢٠.
(٥) **المرجع السابق**،٢٢٥.
(٦) الطيبي، شرف الدين حسين بن محمد ت(٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م)، **التبيان في علم المعاني والبديع والبيان**، تحقيق هادي عطيّة مطر الهلالي، ط(١)، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٨٧، ص٤٥٦.
(٧) الحاتمي، **حلية المحاضرة**، ج١، ص٢٠٦.

الدلاليّة؛ وهو من أهمّ خصائص النصوص. وهو يلتقي مع ما أسماه (براون ويول) بـالتغريض. فثيمة الخطاب عندهما هي نقطة بداية قول ما، وما يبدأ به المتكلّم أو الكاتب سيؤثّر في تأويل أجزاء النص التي تليه. كما أنّ الجملة الأولى من الفقرة الأولى لن تقيّد تأويل الفقرة فقط، وإنّما بقيّة النص أيضاً. فهما يفترضان أنّ كل جملة تشكّل جزءاً من توجيه متدرّج متراكم يخبرنا عن كيفيّة إنشاء تمثيل منسجم للخطاب[١]. ويستعمل (جريماس) مفهوماً أعمّ وهو مفهوم "البناء". ويعرّفه على النحو التالي: "كلّ قول، كلّ جملة، كلّ فقرة، كلّ حلقة، كلّ خطاب، منظّم حول عنصر خاص يتّخذ كنقطة بداية"[٢].

ويرى محمّد خطابي أنّ مفهومي "البناء" و"التغريض" يتعلّقان بالارتباط الوثيق بين ما يدور في الخطاب وأجزائه، وبين عنوان الخطاب أو نقطة بدايته. وأنّ في الخطاب مركز جذب يؤسّسه منطلقه، وتحوم حوله بقيّة أجزائه[٣].

كما يمكن أن يفهم من النصوص السابقة أنّ الابتداء الناجح يساهم فيما أسماه (دي بوجراند ودرسلر) بـ "الانسجام" (Coherence). وهو مفهوم دلالي يعنى بضمان الاستمراريّة المتحقّقة في عالم النص. ويقصد بها الاستمراريّة الدلاليّة مع المحافظة على العلاقات الرابطة بين هذه الدلالات وهذه المفاهيم[٤]. وقد ترجمه بعض الدارسين بـ "الحبك"[٥]. ونجده، في هذا النص الذي أوردناه، في إشارتهم إلى استمرار ظهور الغرض من أوله إلى آخره.

ووفقاً لهما (دي بوجراند ودرسلر) فإنّ الصفة الأساسيّة القارّة في النص هي صفة الاطّراد والاستمرارية، وتعني عندهما التواصل والتتابع والترابط بين الأجزاء المكوّنة للنص، وفصّلا في شرح شبكة العلاقات التي تضمن هذه الاستمراريّة الدلاليّة[٦].

ويؤكّد ابن قيّم الجوزيّة في تعريفه لحسن الابتداء على هذه الاستمراريّة يقول: "هو أن يذكر الإنسان في أوّل خطبته أو قصيدته أو رسالته، كلاماً دالاً على الغرض الذي يقصده ليكون ابتداء كلامه دالاً على انتهائه"[٧]. فالغرض ينبغي أن يبقى ماثلاً في ثنايا النص كله، وهذا يلتقي مع الانسجام أو الحبك الذي أوردناه قبلاً، أو الاستمراريّة الدلاليّة عبر بنية كليّة تحيط بالخطاب كلّه.

أمّا كيف تتجسّد هذه الاستمراريّة، فعبر سطح النص أو أحداثه اللّغويّة الظاهرة، حيث تنتظم مكوّنات النصّ معاً تبعاً للمباني النحويّة. لكنّها لا تشكّل نصّاً إلاّ إذا توافر لها من الوسائل ما يجعل هذا النص محتفظاً باستمراريّته. ولا ريب أنّ الجملة الأولى تحدّد شكل هذه الاستمرارية وتتحكّم فيها، باعتبارها الحلقة الأولى في بناء النص. أمّا

(1) Brown . Gilian & Youl. George, **Discourse Analysis**, Cambridge University Press, 7th Edition, 1988, p.135.
(2) Ibid, p.134.

(٣) خطابي، محمد، **لسانيات النص**: مدخل إلى انسجام الخطاب، ط(١)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١، ص٩٥.
(4) Beaugrand (Robert de) & Dressler (Wolfgang), **The Introduction of Text Linguistics**, Longman linguistics library, London & NewYork, 4TH edition, 1988, p.4.
(٥) مصلوح، سعد، **نحو أجرومية للنص الشعري**: دراسة في قصيدة جاهلية، مجلة فصول، المجلد العاشر، العددان الأول والثاني، أغسطس، ١٩٩١، ص١٥٥
(6) Beaugrand & Dressler, The Introduction of Text Linguistics, p.(5-6).
(٧) ابن قيم الجوزية، **الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان**، ص١٥٧.

المعيار المختصّ برصد هذه الاستمراريّة وتجسيدها، عند اللسانيّين[١]، فهو السبك (Cohesion). وترجمه بعض الدارسين بـ "الاتّساق"[٢].

ونرى هذا "السبك" يتردّد كثيراً عند البلاغيين في عباراتهم المتعلّقة بالابتداء. فهذا الحلّي يقول: "أمّا براعة المطلع فهي عبارة عن سهولة اللفظ، وصحّة السبك، ووضوح المعنى، ورقّة التشبيب، وتجنّب الحشو، وتناسب القسمة"[٣]. فخصائص الابتداء عنده: سهولة الألفاظ، ووضوح المعنى؛ فالتعقيد ينفّر المتلقّي، والرقّة والسلاسة، وأن يكون حجم الرسالة مناسباً لغرضها من غير حشو، والتناسب المعنوي والموسيقى بين الأجزاء (لأنّه يتحدّث عن الشعر). وفيه إشارة إلى ضرورة اتّساق جملة الابتداء مع جنس النص أو بنيته العليا. فما يصلح في الشعر قد لا يصلح للرواية، أو المقالة، أو غيرها. وصحّة السبك. وهو، عند اللسانيّين، يتّصل بالعلاقات اللفظيّة الناظمة للخطاب[٤].

وقد استخدمه الجاحظ. قال: "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فيعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً جيداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري على الذهان"[٥]. ويؤخذ منه أنّ النص المسبوك تهيمن عليه روح واحدة تحفظ تماسكه، وتضفي عليه مسحة ذات طابع متّصل تحفظ انسجامه. وعرّفه أسامة بن منقذ بقوله: "وأمّا السبك فهو أن يتعلّق كلمات البيت بعضها ببعض من أوّله إلى آخره"[٦]. وقال في موضع آخر: "خير الكلام المحبوك المسبوك يأخذ بعضه برقاب بعض"[٧].

"فالسبك إذن وثيق الصلة بالتماسك النصّي، وهو يتّصل بإحكام علاقات الأجزاء ووسيلة ذلك إحسان استعمال المناسبة المعجميّة من جهة، وقرينة الربط النحوي من جهة أخرى، ورعاية الاختصاص، والافتقار في ترتيب الجمل"[٨]. وهذا الافتقار يجعل للجملة الأولى أهميّة بالغة. بحيث ينصرف اهتمام المتلقّي بعدها بقوّة إلى ما يغني ما وصل إليه على أعتاب هذه الجملة ويكمله؛ فهي لا تتحكّم بالجمل التالية حسب، بل بطبيعة الروابط بينها، وبمعجمها، وموسيقاها، وطرق تآلفها، وطريقة ترتيبها، وتماسكها.

وغالباً ما يكون التنظيم السطحي للنص راجعاً إلى تحقيق توافقات خاصّة بين المعنى، والغرض، وعناصر الخطاب الأخرى. وتؤدّي الجملة الابتدائيّة دوراً محوريّاً في صناعة هذه التوافقات والتحكّم فيها؛ فهي الوعاء الأوّل للغرض، وهي التي تمهّد الطريق لاستكماله عبر أجزاء النص. وفي هذا ترجمة لخصيصة العلاقات الانتشاريّة التي أشرنا إليها في السمات النحويّة لجملة الابتداء.

ونجد عند النويري إضافة تتعلّق بهذا السبك؛ فيقول في تعريف براعة الاستهلال: "أن يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه ببيّنة أو قرينة تدلّ على مراده في القصيدة أو الرسالة، أو معظم مراده. والكاتب أشد ضرورة إلى

---

(1) Halliday & Ruqaiya Hassan, p.299.

(٢) محمّد خطّابي، **لسانيّات النصّ**، ص٥.

(٣) صفيّ الدين الحلّي، **شرح الكافية البديعيّة**، ص٥٧.

(٤) عبدالمجيد، جميل، **البديع بين البلاغة العربيّة واللّسانيّات النصيّة**، ط(١)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص١٤١.

(٥) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج١، ص٦٧.

(٦) أسامة بن منقذ، **البديع في نقد الشعر**، ص١٦٣.

(٧) **المصدر السابق**، ص١٦٣.

(٨) حسّان، تمّام، **قراءة جديدة لتراثنا النقدي**، ط(١)، النادي الأدبي الثقافي، جدّة، ١٩٩١ ،ص٧٨٩.

ذلك من غيره، ليبني كلامه على نسق واحد، دلّ عليه من أول وهلة علم بها مقصده"[١]. وفي هذا النص أكثر من نقطة تستحقّ الوقوف:

أولّها: أنّ من وظائف الجملة الابتدائيّة تزويد المتلقّي بمفتاح لفك الكودات (Codes) أو الشيفرات المستخدمة في النص كلّه؛ ففيها البيّنات أو القرائن الدالّة على مراد المرسل.

وثانيها: أنّ قوله: "ليبني كلامه على نسقٍ واحد" يلتقي مباشرة مع مصطلح "السبك الذي أشرنا إليه. والنسق الواحد هو شبكة واحدة ناظمة من العلاقات التركيبيّة، وتتّصل: بالمعجم، والصرف، والصوت، والنحو لتضمن اتّساق النصّ كلّه. وبذا تكون الجملة الابتدائيّة – عند البلاغيّين – قد جمعت بين أهم خصائص "النصيّة" كما يذكرها علماء النص، أي السبك والحبك[٢]. والأوّل يتّصل بالاستمراريّة اللفظيّة على سطح النص، والثاني يتّصل بالاستمراريّة الدلاليّة في النصّ كلّه.

وهو يلتقي كذلك مع ما قاله أبو طاهر البغدادي: "وكذلك الخطيب إذا ارتجل كلّ خطبة، والبليغ إذا افتتح رسالة، فمن سبيله أن يكون ابتداء كلامه دالاً على انتهائه، وأوّله ملخّصاً بآخره"[٣]. ولعل هذا يشبه ما قاله (تودوروف): "إنّ الجملة الأولى من "آنا كارنينا"[*] تتضمّن بقيّة الكتاب بصورة مكثّفة"[٤].

ويمكننا أن نلاحظ، من خلال النصوص السابقة جميعاً، أنّ الجملة الابتدائيّة قاسم مشترك بين ثلاث وظائف نصيّة واضحة هي: انفتاح النص، ونجاحه، وتماسكه.

ويمكننا توضيح ذلك من خلال الشكل التالي:

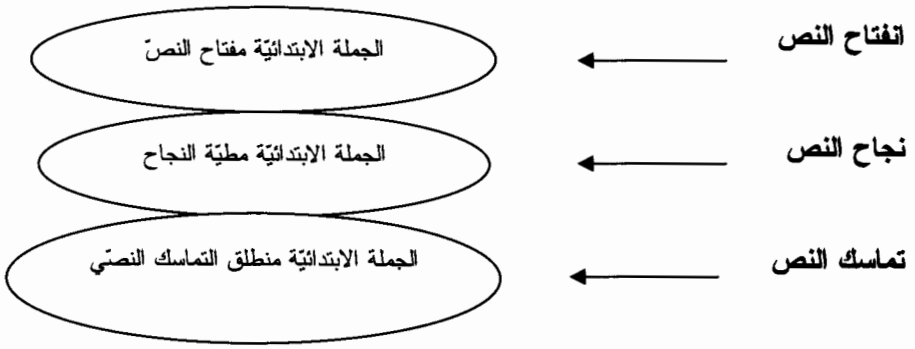

ج. ابتداء النص المعجز:

تفرّدت معالجة علماء القرآن للجملة الابتدائيّة بأنّها لم تعالج سوى ابتداء نصٍّ واحد هو النص القرآني. وكأنّما معالجة هذه الجملة في الموروث العربي قد تدّرجت من العموم إلى الخصوص إلى الأخصّ، وعلى النحو التالي:

---

(١) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب، ت(٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، المؤسّسة المصريّة العامّة، القاهرة، د.ت، ج٧، ص١٣٣.

(2) Beaugrand (Robert de) & Dressler (Wolfgang), **The Introduction of Text Linguistics**, Longman linguistics library, London & NewYork, 4TH edition, 1988, p.4.

(٣) أبو طاهر البغدادي، **قانون البلاغة**، ص ١١٧ .

(*) آنا "كارنينا" رواية وضعها الكاتب الروسي (ليو تولستوي). صدرت عام ١٨٧٧.

(٤) تودوروف، **الشعريّة**، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، ط(١)، دار توبقال، الدار البيضاء،١٩٨٧، ص٤.

النحاة ←———	البلاغيون ←———	علماء القرآن
الجملة الابتدائيّة	الجملة الابتدائيّة	ابتداء النص المعجز
عموماً	الناجحة والمميّزة	

ويأتي الحديث عن الجملة الابتدائيّة عند علماء القرآن ضمن حديثهم عن "فواتح السور". وهي جزءٌ من مبحث كبير عندهم عرف باسم "المناسبة"، ويتناول أسرار الترتيب، ودلالته على التماسك والترابط في النص القرآني. و"المناسبة في اللّغة: المشاكلة والمقاربة. ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها، عام أو خاص، عقلي، أو حسي، أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني"(١).

أمّا فائدة هذه المناسبة فهي: "جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"(٢). فالنص كلّ، وهو كلٌّ محكم، وهذا الكل يأتلف من أجزاء متلائمة متماسكة مترابطة.

ويمكن الاستنتاج من ذلك أنّ البحث في الكلّ بنيةً كليّةً كبرى مُحْكَمة، لابدّ أن يقود إلى البحث في الأجزاء التي شكّلت هذا الكل، وإلى البحث في العلاقات التي أدّت إلى تلاؤمها وترابطها. ولا ريب أنّ البحث في الجملة الأولى في كلّ سورة يحتلّ أهميّة بالغة على هذا الصعيد. كما أنّ البحث في السورة الأولى في النصّ كلّه لها الأهميّة نفسها. وقد كانا محلّ اهتمام علماء القرآن في دراساتهم النظريّة والتطبيقيّة.

وقد أكثر الإمام الرازي من الاهتمام بهذه المناسبة، ونقل الزركشي عنه قوله: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"(٣). ومن البدهي أنّ أي بحث في الترتيب يقتضي الحديث عن الجملة الأولى؛ فهي بداية الترتيب في كلّ نص. كما أنّ البحث في الروابط إنّما يبدأ بها ومنها. وأضاف ابن العربي إضافة تفصيليّة إلى موضوع المناسبة يقول: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتّى تكون كالكلمة الواحدة متّسقة المعاني منتظمة المباني، علم عظيم"(٤). وهذه الإضافة تؤكّد على فكرة (النص/ كل). وأنّ هذه الكليّة مردّها ترابط الآيات وتماسكها. وأنّ هذا الترابط مردّه أمران: الاتّساق الدلالي، والانتظام التركيبي. ولعلّ الاتساق الدلالي يلتقي مع مصطلح "الحبك"، الذي يتّصل بالاستمراريّة الدلاليّة المتحقّقة في عالم النص. أمّا انتظام المباني فيلتقي مع مصطلح "السبك" الذي مرّ قبلاً، ويعنى بالتماسك اللفظي والعلاقات البنيويّة الناظمة لمركبّات النص. وسبيلنا إلى وصف هذين (الاتّساق الدلالي وانتظام المباني) لابدّ أن يبدأ من الجملة الأولى.

وللبحث في ترابط الآي بعضها ببعض، ومنها الآية الأولى، لابدّ من الوقوف على العلاقة الناظمة للأجزاء. يقول الشيخ عزالدين بن عبدالسلام: "يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد، مرتبط أولّه بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة، لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلّف بما لا يقدر عليه، إلاّ بربط ركيك

---

(١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر، ت(٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، **الإتقان**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط(١)، المكتبة العصريّة، بيروت، ١٩٨٨، ج٣، ص٣٢٣.

(٢) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، ت(٧٩٤هـ/ ١٣٩١م)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط(١)، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨، ج١، ص٣٦.

(٣) **المصدر السابق**، ج١، ص٣٦.

(٤) **المصدر السابق**، ج١، ص٣٦.

يصان عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه"[1]. وقوله: "مرتبط أوّله بآخره" إشارة مباشرة إلى أهميّة الجملة الابتدائيّة في هذا الترابط وهذا التماسك. والبحث فيها هو أوّل الوصول إلى الخيط الناظم والعلاقة الموحدّة.

وقد تناول علماء القرآن مواصفات الابتداء الناجح، ومنه قول السيوطي: "من البلاغة حسن الابتداء، وهو أن يتأنّق في أوّل الكلام لأنّه أوّل ما يقرع السمع، فإن كان محرّراً قِبَلَ السامع قَبِلَ الكلامَ ووعاه، وإلاّ أعرض عنه، وإن كان في نهاية الحسن. فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأرقّه، وأجزله وأسلسه، وأحسنه نظماً وسبكاً، وأصحّه معنى وأوضحه، وأخلاه من التعقيد، والتقديم والتأخير الملبس، أو الذي لا يناسب. وقد أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه وأكملها[2]".

ولا يبتعد وصف السيوطي هذا للابتداء عن وصف البلاغيين؛ فهذا الابتداء له وظائف تداوليّة تتعلّق بضمان إقبال المتلقّي، وفيه مواصفات الابتداء الناجح من: حسن السبك، وصحّة المعنى ووضوحه، وبعده عن التعقيد، وبعده عن الخيارات التركيبيّة التي تؤدّي إلى اللبس، ومنها التقديم والتأخير غير المناسب. لكنّه يضيف إلى ذلك أنّ الابتداء في النص القرآني يمثّل "أحسن الوجوه وأكملها".

وفي نص لابن أبي الإصبع المصري تحت عنوان: "حسن الابتداءات" يقول: "وممّا يدخل في هذا الباب من الكتاب العزيز ابتداءات السور، وإذا تدبّرت جملتها وتفصيلها ومفرداتها ومركّباتها ومعجماتها، ونظرت في أعداد حروفها من العدد الحسابي، وما نسب إليه من المعاني، رأيت من البلاغة والتفنّن في أنواع الإشارة ما تقصر عنه العبارة"[3].

وهو يصف لنا مواصفات الابتداء المعجز، الذي يمتاز بالتفرّد في جانب: التراكيب، والمعجم، والأسلوب؛ فهو الغاية، وهو الذروة في الإشارة إلى المقصود، وهو يمتاز بالدقّة البالغة في حسن الاختيار في جانب الأصوات والكلمات والمعاني.

إننا إذا كنّا احتجنا إلى إعمال القراءة والنظر في أقوال البلاغيّين لنستخرج منها علاقة الجملة الابتدائيّة بتماسك النص وترابطه، فإنّنا لا نحتاج إلى مثل هذه الإعمال هنا؛ ذلك أن عبارات علماء القرآن شديدة الوضوح في هذا الشأن. وإنّ معجم المصطلحات التي استخدموها في وصف هذه المناسبة ليدلّ على وعي عميق بالتحليل النصّي في إجراءاته المختلفة، وحسبنا أن نشير إلى مصطلحات: (التناسب، والتماسك، والاتّساق، والترابط، وتلاحم الأجزاء، والتعالق، والانتظام، والعلاقات الرابطة، والتلازم، والمشاكلة، والمرجعيّة، والتأليف، والبناء المحكم، والترتيب، والاتّصال، والالتئام، وحسن النظم، والتناسق)[*].

أمّا في التقنيات الإجرائيّة التي يقترحونها للبحث في التناسب والترابط بين آي القرآن، ومنها الجملة الابتدائيّة، فإنّ الغرض يَمثُل أوّلاً. وينقل السيوطي عن بعض المتأخّرين القاعدة التالية: "الأمر الكلّي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنّك تنظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدّمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدّمات إلى ما يستتبعه من

---

(١) السيوطي، **الإتقان**، ج٣، ص٣٢٢.

(٢) **المصدر السابق**، ج٣، ص٣٢٣.

(٣) ابن أبي الإصبع المصري، **بديع القرآن**، ص١٥٢.

(*) تجد هذه المصطلحات متناثرة في "باب المناسبات" في كتب علوم القرآن ومنها: الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ج١، ص(٣٦-١٨٠). والسيوطي، أبو الفضل حلال الدين عبد الرحمن أبو بكر، ت(٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط(١)، ١٩٨٨، ص٤٣- ١٦٠). والسيوطي،**الإتقان**، ج٣/ص (٣١٥-٣٥٠) .

استشراف نفس السامع إلى الأحكام أو اللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها؛ فهذا هو الأمر الكلّي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته تبيّن لك وجه النظم مفصّلاً بين كل آية وآية، وفي كلّ سورة وسورة"(١).

فالغرض هو الذي يحدّد طبيعة الجملة الابتدائيّة، وهي بدورها تتحكّم في بقيّة أجزاء النص، وفي طبيعة الروابط الناظمة للخطاب؛ ولذا فلابدّ من توخّي هذا الغرض في تحليل الجملة الأولى والنصّ كلّه. وقد ترجم علماء القرآن هذه العناية بالغرض في أن جعلوا أحد أنواع المناسبة مناسبة فاتحة السورة لمقصدها، وأسموا ذلك براعة الاستهلال كما فعل البلاغيّون.

ومن مواصفات الابتداء الحسن عندهم أيضاً مناسبته لسياق الحال. يقول السيوطي معرّفاً براعة الاستهلال: "أن يشتمل أوّل الكلام على ما يناسب الحال المتكلّم فيه، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله، والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة"(٢). إنّ محلّل الخطاب هنا ينبغي أن ينظر في توافر سمتي المناسبة والإشارة في الجملة الابتدائيّة. أمّا المناسبة فتتّصل بتناسب الجملة الابتدائيّة مع سياق الحال، بحيث تعبر عنه بإحكام ووضوح. أمّا الإشارة فتتصل بطريقة تعبير الجملة الابتدائيّة عن غرض النص؛ فينبغي أن تشير إليه إشارة عن طريق القرينة الكاشفة والومضة الدالّة، وليس عن طريق المباشرة.

لكن لابدّ من فهم معنى الجملة الابتدائيّة أوّلاً، حتّى ينظر في تعالقها مع النص. وفي هذا الصدد يقسّم ابن القيّم فواتح السور إلى قسمين: جليّ، وخفيّ. أمّا الجليّ فمثل قوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(٣). وأمّا الخفي فهي السور التي افتتحت بالحروف المفردة والمركبّة، مثل قوله تعالى: ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾(٤). وأكثر مطالع سور القرآن من النمط الجليّ، وفقاً لابن قيّم الجوزيّة(٥).

ومرد الخفاء والجلاء هو الوقوف على المعنى؛ ففهم معنى الآية هو الذي يقودك إلى فهم علاقاتها بما بعدها. ومن الجدير بالذكر أنّ ابن هشام قد وقف على هذه المسألة في معرض حديثه عن الجملة الابتدائيّة. يقول: "وأوّل واجب على المعرب أن يفهم معنى ما يعربه مفرداً أو مركّباً؛ ولهذا لا يجوز إعراب فواتح السور على القول بأنّها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه"(٦). ويقصد بفواتح السور هنا المبدوءة بالحروف المقطّعة وليس مطلق الفواتح، فهي التي عدّها العلماء من المتشابه.

ويؤخذ من هذا كلّه، أنّ معرفة قواعد الربط بين الجملة الابتدائيّة وبقيّة أجزاء النص رهين بمعرفة معنى هذه الجملة، لا يكتمل إلاّ باكتماله، ولا يستقيم إلاّ باستقامته.

وقد تولّى الزركشي وصف آليّات البحث عن الترابط النصيّ في القرآن الكريم. ولا يبتعد في هذا عمّا فعله البلاغيّون في مبحث الوصل والفصل. يقول: "فالذي ينبغي في كلّ آية أن يبحث أوّل كل شيء عن كونها مكمّلة لما قبلها، أو مستقلّة، ثمّ المستقلّة ما وجه مناسبتها لما قبلها؛ ففي ذلك علم جم. وهكذا في السور يطلب وجه اتّصالها بما قبلها وما سيقت له"(٧).

---

(١) السيوطي، **الإتقان**، ج٣، ص٣٢٧.
(٢) السيوطي، **معترك الأقران**، ج١، ص٧٥.
(٣) **سورة الفاتحة**، الآية (١).
(٤) **سورة البقرة**، الآيتان (١- ٢).
(٥) ابن قيّم الجوزيّة، **الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن**، ص(١٥٥ - ١٥٦).
(٦) ابن هشام، **مغني اللبيب**، ص ٦٨٤.
(٧) الزركشي، **البرهان**، ج١، ص٤٠.

وفي هذا الوصف الإجرائي يؤكّد الزركشي أنّ عالَم النص يتشكّل من جمله المستقلّة، وبالتالي فإنّ الجملة الابتدائيّة هي جزءٌ أساسٌ من هذا العالم. وبما أنّها الأولى في سلسلة الخطاب فإنّ البحث في تعالق الجمل يبدأ منها، وعبر نافذة الغرض دائماً. أمّا طبيعة العلاقات الناظمة فهي خارج إطار العلاقة التركيبيّة العامليّة، واقترح الزركشي بعضها[١]. ومنها: السبب والمسبّب، والعلّة والمعلول، وغيرها. وكلّها علاقات دلاليّة أو منطقيّة.

ورأى أنّ توالي الآيات الواحدة بعد الأخرى، إمّا أن يكون ظاهر الارتباط لتعلّق الكلم بعضه ببعض، وعدم تمامه بالجملة الأولى، وهذا واضح التعالق نحويّاً. أو أن تكون الثانية للأولى على وجه: التأكيد، أو التفسير، أو الاعتراض، أو البدل. وهذا القسم "لا كلام فيه"، أي إنّ الارتباط فيه واضح دلالياً. وإما ألا يظهر الارتباط، بل يظهر أنّ كل جملة مستقلة عن الأخرى، وأنّها خلاف النوع المبدوء به، فهذه ينظر في تعاطفها مع ما بعدها أو عدم تعاطفها. فإن تعاطفتا، فينبغي البحث عن الجهة الجامعة بينهما، أي العلاقة الدلالية الرابطة، أو ما أسماه (فان ديك) بتعالق الوقائع، وأشرنا إليه قبلاً. وإذا لم يتعاطفا وجب عندها البحث عن "دعامة تؤذن باتّصال الكلام، وهي قرائن معنويّة تؤذن بالربط.... وتنزل الثانية من الأولى منزلة جزئها الثاني. وله أسباب..." [٢]. ويحيلنا هذا إلى ما سبق أن نقلناه عن الجرجاني حول تقنيات تعالق الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب.

ويهمّنا في هذا الشرح التفصيلي لتقنيات التعالق بين الجمل، ما يتّصل بالجملة الابتدائية. ويمكننا أن نقدّم الأمثلة التالية بالاستضاءة بالتقنيات السابقة:

مثال (١):﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾[٣].

ج١ = "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً".

ج٢ = "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر".

يلاحظ أنّ الجملة الابتدائية والجملة الثانية مترابطتان ترابطاً تركيبياً ظاهراً؛ فالجملة الثانية جزء من الجملة الأولى وليست مستقلة. وتربطها بالأولى علاقة ارتباط تعدية عن طريق حرف الجر (اللام) في الفعل "ليغفر". فهما جملة واحدة وليستا جملتين (وفقاً للتعريف الذي وضعناه للجملة في فاتحة البحث). وهذا النوع من الترابط هو ترابط نحوي عاملي مباشر، وصفه الزركشي بأنه "لا كلام فيه"؛ أي هو تعالق نحوي ظاهر لا يحتاج إلى إعمال نظر.

مثال (٢): ﴿**والشمس وضحاها ۞ والقمر إذا تلاها**﴾[٤].

ج١ = "والشمس وضحاها".

ج٢ = "والقمر إذا تلاها".

هاتان جملتان من النمط الثاني عند الزركشي، فهما مستقلّتان لكنّهما مترابطتان عن طريق أداة العطف (واو)؛ فعلى محلّل الخطاب أن يبحث عن الجهة الجامعة بينهما. ويمكن أن نقترح هنا عدداً من العلاقات التي تحقّق هذه الجهة الجامعة.

---

(١) **المصدر السابق**، ص٤٠.

(٢) **المصدر السابق**، ص٤٦ وما بعدها.

(٣) **سورة الفتح**، الآيتان (١ -٢).

(٤) **سورة الشمس**، الآيتان (١ -٢).

إنّ الجملتين مترابطتان تركيبيّاً عن طريق الواو، وعن طريق الإحالة؛ فالضمير (الهاء) في "تلاها" في الجملة الثانية يحيل إلى "الشمس" في الجملة الأولى. كما يترابطان تركيبيّاً عن طريق الاشتراك في العامل المحذوف؛ فأصل التركيب: وأقسم بالشمس وأقسم بالقمر. كما أنّ الاتّساق الصوتي بين "ضحاها، وتلاها" يساهم في الاتّساق بين الجملتين، وهو يدخل في مجال عمل "السبك" الذي أشرنا إليه.

والجملتان مترابطتان دلاليّاً؛ فالجملة الأولى تتحدّث عن القسم بآية كونيّة هي الشمس، والثانية تتحدّث عن قسم بآية كونيّة أخرى هي القمر؛ فهما يشتركان في جامع القسم، وأنّ العنصرين الإشاريّين المقسم بهما (الشمس والقمر) من آيات الكون؛ فهذه المشاهد الكونيّة التي تبدأ بها السورة "تظهر وكأنّها إطار للحقيقة الكبيرة التي تتضمّنها السورة، حقيقة النفس الإنسانيّة واستعداداتها الفطريّة، ودور الإنسان في شأن نفسه، وتبعته في مصيرها، هذه الحقيقة التي يربطها سياق السورة بحقائق الكون ومشاهده الثابتة"[١].

مثال (٣): ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[٢].

ج١ = "اقرأ باسم ربك الذي خلق".

ج٢ = "خلق الإنسان من علق".

وهاتان الجملتان مستقلّتان، ولا عاطف بينهما، فينبغي عندئذٍ الاعتماد على "الدعامة التي تؤذن باتّصال الكلام" – وفقاً للزركشي – ويمكننا هنا أن نقترح عدداً من العلاقات أو الدعامات. ومنها: التعالق التركيبي بين الجملتين عبر وحدة المسند إليه في الفعلين (خلق, وخلق) في الآيتين وهو الله. ومنها تكرار الفعل (خلق) في الجملتين، الذي لو حذف في وروده الثاني لكانت الجملة الثانية تابعة للجملة الأولى. ولكان التركيب: "اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق". لكنّ استقلال الجملتين مقصود، وتكرار العامل (خلق) مقصود أيضاً، فالمفعول به للفعل (خلق) في الجملة الثانية هو (الإنسان) حسبُ، بينما المفعول به للفعل (خلق) في الجملة الأولى مطلق مفتوح. والإحالة عبر (ال) الجنسيّة: في "الإنسان" الذي يندرج تحته المسند إليه في الفعل "اقرأ"، وهو النبي الكريم (ﷺ) وكل البشر بعده. وكلّهم من جنس الإنسان. وهناك علاقة الإجمال والتفصيل؛ فالآية الأولى أطلقت عمليّة الخلق ولم تحدّد المفعول به، والثانية جزء من تفصيل هذا الخلق، وهو تفصيل في عطايا هذا الرب سبحانه وتعالى الذي طلبت الجملة الابتدائيّة أن نقرأ باسمه. وليست هذه العلاقات جامعة شاملة، وإنّما هي أمثلة مقترحة حسب.

هذا في جانب العلاقات المباشرة بين الآيات المتتالية، وهي جزء من العلاقات النصيّة الناظمة للنصّ القرآني كلّه، والتي جعلها علماء القرآن في ثمانية أنواع أسموها: أنواع المناسبات وهي[٣]:

الأول: بيان مناسبات ترتيب سوره، وحكمة وضع كلّ سورة منها.

الثاني: بيان أنّ كلّ سورة شارحة لما أجمل في السورة التي قبلها.

والثالث: وجه اعتلاق فاتحة السورة بخاتمة ما قبلها.

والرابع: مناسبة مطلع السورة لمقصدها.

---

(١) قطب، سيّد، **في ظلال القرآن**، ط(١١)، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٥، مجلد (٦)، ص٣٩١٥.

(٢) **سورة العلق**، الآيتان (١ –٢).

(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر، ت(٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، **تناسق الدرر في تناسب السور**، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط(١)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٦، ص(٦٥– ٦٦).

والخامس: مناسبة أوائل السور لأواخرها.

والسادس: مناسبات ترتيب آياته، واعتلاق بعضها وارتباطها وتلاحمها وتناسبها.

والسابع: بيان فواصل الآي، ومناسبتها للآي التي ضُمّت إليها.

والثامن: مناسبة أسماء السور لها.

ومن الواضح في هذا التصنيف أنّ الجملة الابتدائيّة تشكّل العنصر الأبرز عندهم؛ فهي تتّصل بالنوع الثالث والرابع والخامس والسادس، وربّما الثامن لمن يعدّ العنوان جزءاً من الجملة الابتدائيّة. ولأهميّتها أفردوها بالتأليف(*).

وممّا أوردوه أنّ أكثر سور القرآن الكريم قد سمّيت تبعاً للجملة الأولى؛ ومن هذه السور: الإسراء، وطه، والمؤمنون، والفرقان، ويس، و.... (١). وقد أطلق أحد الدارسين المحدثين على هذه العلاقة اسم: "التماسك النصيّ بين اسم السورة والسورة عبر الآية الأولى"(٢). أمّا المناسبة بين الجملة الابتدائيّة في السورة وخاتمتها. فإنّها تحدث تماسكاً بين أوّل النصّ وآخره. وهي علاقة نصيّة بامتياز. وأشار علماء القرآن إلى عدد من وسائل هذا التماسك؛ ومنها: التكرار باللفظ والمعنى أو بالمعنى فقط، ومنه الترادف، ومنه علاقة الإجمال والتفصيل، وغيرها. ومن أمثلته اتّساق الفاتحة والخاتمة في سورة "المؤمنون"(٣)؛ فقد ابتدأت بـ: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**﴾، واختتمت بـ: ﴿**إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾. وعلّق الزمخشري على هذا بقوله: "فشتّان ما بين الفاتحة والخاتمة"(٤). لكنّهم لم يفصّلوا في طبيعة هذا التعالق وأثره التفصيلي في تماسك النص.

كما قدّم علماء القرآن نماذج تطبيقيّة للاتّساق والترابط بين خاتمة السورة وفاتحة التي تليها. وبعض هذا الاتّساق صوتي، وبعضه دلالي، أو أسلوبي، أو ... ومن أمثلتهم الاتّساق بين خاتمة سورة الفيل وسورة قريش؛ فالأولى ختمت باللام ﴿**فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ**﴾(٥)، والثانية افتتحت باللام: ﴿**لِإِيلافِ قُرَيْشٍ ۞ إِيلافِهِمْ**﴾(٦). وهو اتّساق صوتي كما نلاحظ، وأسماه السيوطي "التعلّق اللفظي"(٧). ومن أمثلتهم كذلك انتهاء (الطور) بـ ﴿**وَإِدْبَارَ النُّجُومِ**﴾(٨)،وافتتاح (النجم) بـ ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى**﴾(٩). وهو اتّساق لفظي دلالي.

أمّا الاتّساق بين الجملة الابتدائيّة ومضمون السورة أو بنيتها الدلاليّة، فيذكرون له أمثلة كثيرة، ومنها: الاتّساق بين افتتاح سورة الإسراء ومضمونها؛ فقد افتتحت بالتسبيح، وهذا يتّسق مع ما اشتملت عليه السورة من ذكر

(*) من هذه الكتب: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر، ت(٩١١هـ/ ١٦٠٥م)، **مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع**. وابن أبي الإصبع المصري، زكّي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد المصري، ت(٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، **الخواطر السوانح في أسرار الفواتح**، **تحقيق حفني شرف**، القاهرة، ١٩٦٠.

(١) السيوطي، **الإتقان**، ج٣، ص٣٣٠.

(٢) الفقي، صبحي إبراهيم، **علم اللّغة النصيّ**، دراسة تطبيقيّة على السور المكيّة، ط(١)، دار قباء للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠، ص١٢.

(٣) انظر السيوطي، **الإتقان**، ج٣، ص٣٣١. والآيتان (١ و ١١٨) على التوالي من سورة "المؤمنون".

(٤) الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، ت(٥٣٨هـ/ ١١٤٤م)، **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل**، تحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوّض، ط(١)، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٨، ج ٥، ص١٣٢.

(٥) سورة الفيل، الآية (٥).

(٦) سورة قريش، الآية (١ -٢).

(٧) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر، ت(٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، **تناسق الدرر في تناسب السور**، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط(١)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٦، ص١١٨.

(٨) **سورة الطور**، الآية (٤٩).

(٩) **سورة النجم**، الآية (١). وانظر في ذلك: السيوطي، **تناسق الدرر**، ص١١٩.

الإسراء الذي كذّب المشركون به النبي (ﷺ) وتكذيبه تكذيب لله تعالى؛ أي أتى بـ (سبحان) لتنزيه الله عما نسب إليه ولنبيّه من الكذب(١).

وقاموا بتصنيف فواتح القرآن بحسب الضابط الدلالي والأسلوبي لها. فجعلوها عشرة أنواع من الكلام: الأول: الثناء، والثاني: النداء، والثالث: الأقسام، والرابع: الشرط، والخامس: الجمل الخبريّة، والسادس: الدعاء، والسابع: الأمر، والثامن: الاستفهام، والتاسع: التعليل، والعاشر: حروف التهجّي(٢).

وتمثّل إشارة بعض علماء القرآن إلى نوع من الترابط الدلالي بين السور التي لها نوع واحد من الفواتح نقلة نوعيّة في دراسة الترابط النصيّ في القرآن الكريم؛ فيذكرون أنّ السور التي تبدأ بالثناء على الله وعددها (١٤) سورة(*) يجمعها رابط دلالي معين، وتلك المبدوءة بحروف التهجّي يربطها ناظم واحد و... (٣). وهي علاقة نصيّة تتجاوز العلاقة بين جملتين كما هو معتاد في تناول البلاغيّين والنحاة.

وقد لفتت الفواتح المبدوءة بالتهجّي العلماء قديماً، وحاولوا تفسيرها. كما لفتتهم حديثاً، ووضعت فيها الدراسات، ومنها دراسة باحث معاصر حاول أن يفسّرها في ضوء مفهوم "براعة الاستهلال" وعموده الرئيس حسن الإشارة إلى المقصود(٤).

إنّ الممارسات النصيّة لعلماء القرآن تكشف عن وعي عميق بمفهوم النص، وتكشف عن أهميّة بالغة للجملة الأولى في التحليل النصيّ؛ فالفاتحة هي ابتداء القرآن الكريم؛ ولذلك فإنّها تؤدّي وظائف الجملة الابتدائيّة بالنسبة للسورة الواحدة، ففيها جماع الغرض والمقصود في القرآن كلّه(*). ثمّ نظروا في فاتحة كلّ سورة، وشرحوا تناسبها مع عنوانها، ومع مضمون السورة، ومع خاتمتها. ويتّضح من هذه الممارسة فهم عميق لوظائف هذه الجملة، ومنها: تهيئتها للمتلقّي، ومنها إجمالها لمضمون الخطاب، والإشارة إلى غرضه. والنصّ كلّه يتعالق بالجملة الأولى بطريقة من الطرائق. وهي –بهذا– عنصر رئيس ومظهر أساس من مظاهر انسجام النص وتماسكه.

إنّ الجملة الابتدائيّة – وفقاً لفهم علماء القرآن – تصنع ما يشبه الإطار الذي يحيط بمكوّنات النصّ؛ وبذا فهي تزوّد المتلقّي بمرجعيّة يقرأ من خلالها النصّ كلّه. وهي تزوّده بقرائن وإشارات تعينه في التأويل والفهم، وتعينه في الوصول إلى مقصود النصّ وغرضه؛ فالغرض والجملة الابتدائيّة يترابطان ترابطاً عضويّاً، ولعلّ هذا بعض ترجمة قول الجرجاني: "بل ليس من فضل ومزيّة إلا بحسب الموضع، وبحسب المعنى التي تريد، والغرض الذي تؤم"(٥). لكن جهود علماء القرآن بقيت ملاحظات متناثرة، ولم يتناولوا كلّ نصٍّ تناولاً شاملاً كاملاً يحيط بالقضايا النصيّة التي أشاروا إليها. ويلزمنا اليوم أن نعيد قراءة النصّ القرآني في ضوء ما أنجزوه من جهود، وفي ضوء ما تحصّل لنا من ثمار علم النص. وننظر في الدور الذي أدّته الجملة الابتدائيّة في كلّ نص.

إنّ الجملة الابتدائيّة – وفقاً لكلّ ما تقدّم – قد تتحوّل داخل النص إلى "علامة" تلازم كل مفردات النص، وذلك من خلال الفعل التوليدي التكراري لها داخل البنية الكليّة للنصّ؛ "فتكتسب تبعاً لذلك سمات وخصائص الرمز الذي

---

(١) الزركشي، **البرهان**، ج١، ص٣٩.

(٢) السيوطي، **الإتقان**، ج٣، ص(٣١٦– ٣١٧).

(*) السور المبدوءة بالثناء على الله تعالى هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، والفرقان، والملك، والإسراء، والأعلى، والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن.

(٣) السيوطي، **تناسق الدرر**، ص١٠٠.

(٤) عبد الجليل، محمد بدري، **براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور**، ط(٢)، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤.

(*) وفي هذا يقول الطيبي: "وجميع القرآن تفصيل لما أجملته". السيوطي، **معترك الأقران**، ص٧٥.

(٥) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص٨٧.

يلازم كل المفردات، فتضايفها مع هذه المفردات يعطيها خصوصيّتها. ويأخذ منها ما يغني رمزيّتها"[١]. وبذا يكون النص توليداً متنامياً لهذه الجملة.

إنّ مفردة "الجملة الابتدائيّة" تندرج في علم النص تحت عنوان "تنظيم الخطاب"، وهو من علامات تميّز النصوص. إنّ انتظام الجمل في النص وفق ترتيب (ما) هو الذي يصنع العالم الحقيقي للنص. وهذا الترتيب هو الذي يبرز دلالات النص الحقيقيّة، وهو الذي يظهر انسجامه، ويمكن للقارئ أن يترجم هذا التنظيم وأن يقرأه في ضوء معرفته بالعالم، وفي ضوء خبراته اللّغويّة.

والجملة الابتدائيّة، كما وصفها (براون ويول) –وكما تبيّن من البحث، "لا تهيئ فقط نقطة بداية يتبنين حولها اللاحق في الخطاب، بل إنها تهيئ أيضاً نقطة بداية تقيّد تأويلنا لما سيلحق"[٢]. ولذا عدّ الجرجاني المبادئ والفواتح في القرآن الكريم واحدة من المزايا التي أعجزت العرب؛ يقول في جواب السؤال الذي طرحه: "عمّاذا عجزوا؟": "أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها"[٣].

ومع كلّ هذه الأهميّة التي فصّلنا فيها للجملة الابتدائيّة، فإنّ الباحثة تعتقد أنّها لا يمكن أن تدرس وحدها بعيداً عن أجزاء النص كما ذهب أحد الدارسين، يقول: "إنّ الاستهلال بوصفه بنية مغلقة، وبما يمتلكه من بنية خاصّة يمكن دراسته ومعاينته بمعزل عن بقيّة عناصر النص الأخرى؛ فهو أشبه بالجنين الذي ولد من أبوين، وفي الوقت نفسه يعدّ كائناً مستقلاً"[٤].

وهي لا يمكن أن تعمل وحدها، ولا يمكن عزلها في الدراسة عن غيرها، فإنّ حالها إذا قطعت عن الجمل اللاحقة – وفقاً للجرجاني – حال بيت الشعر "إذا قطع عن القطعة كان كالكاعب تفرد عن الأتراب فيظهر فيها ذلّ الاغتراب. والجوهرة الثمينة مع أخواتها في العقد أبهى في العين"[٥]. والفائدة، كما قال ابن جنّي، "إنّما تجنى من الجُمَلِ ومدارج القول"[٦].

---

(١) ياسين النصير، **الاستهلال**، ص٣٣.

(3) Brown & Youl, p139.

(٣) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص٣٩.

(٤) ياسين النصير، **الاستهلال**، ص٢١٤..

(٥) الجرجاني، عبد القاهر، ت(٤٧١هـ/ ١٠٧٨م)، **أسرار البلاغة**، شرح وتعليق محمّد عبد المنعم خفاجي، ط(١)، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٩٨٦، ص١٧٩.

(٦) ابن جنّي، **الخصائص**، ج٢، ص٣٣١ .

خاتمة:

قدّم هذا البحث رؤية العلماء العرب القدامى، من النحاة والبلاغيين وعلماء القرآن، للجملة الابتدائيّة: حدّها، وخصائصها، ووظائفها. وأظهر خطورة دور هذه الجملة في التشكيل النصّي. ويمكن الإشارة –هنا– إلى النتائج التالية:

١. وقف البلاغيّون عند الجملة الابتدائيّة المميّزة دون غيرها من الجمل الابتدائيّة، ووصفوا النص الذي لا يمتاز بالابتداء الناجح بالنص الأبتر. ثمّ إنّهم وقفوا عند أهميّة الابتداء الناجح ووظائفه وخصائصه، ووقفوا عند استراتيجيّات الخطاب في الجملة الأولى. وأبرزوا أهمّ العناصر المتحكّمة في تشكيل الجملة الابتدائيّة وصياغتها، وعلى رأسها: غرض الخطاب، وطبيعة المتلقّي وأحواله، والمرسل، والموضوع، وسياق الحال. وأظهروا الأثر النفسي والعقلي للجملة الابتدائيّة على المتلقّي. كماً أوضحوا دور الجملة الابتدائيّة في صناعة التماسك النصّي. وهم بهذا قد أكملوا صنيع النحاة الذين وصفوا الجملة الابتدائيّة تركيبيّاً، وذكروا عنصر الفائدة بوضوح لكنّهم لم يفصّلوا فيه أبداً، وتولّى البلاغيّون هذه المهمّة.

٢. إنّ كلّ نصّ يصنع ابتداءه الخاص من خلال: موضوعه، وغرضه، ومضمونه، ومن خلال طبيعة المرسل والمتلقّي معاً.

٣. أكّد البحث على الحضور الخاص لهذه الجملة في بناء النصوص، ولكنّه أكد أيضاً على أنّه لا يمكن دراسة هذه البنية الخاصّة بمعزل عن البناء النصّي كلّه. فإنّ مضمون أيّ جملة في النص لا يمكن قراءته إلا من خلال الجمل الأخرى؛ فالنص كلٌّ واحدٌ تحكمه بنيةٌ كليّةٌ واحدةٌ، ولا يمكن قراءة أي جزء إلاّ من خلال هذه البنية الكليّة.

٤. أوضح البحث الوظائف التداوليّة لجملة الابتداء؛ فهي التي تهيئ المتلقّي لقبول النص، وهي التي تزوّده بمفتاح لِفَكّ شيفرات هذا النص؛ فهي مفتاح النصّ ومطيّة نجاحه. وهي أساس في صناعة التماسك النصّي.

٥. يوصي هذا البحث بجعل "الجملة الابتدائيّة" مبحثاً قارّاً في نحو النص، ومفردة أساسيّة من مفرداته، وأنْ يُتَرْجَمَ هذا في الجانب التطبيقي في دراسة ابتداءات النصوص بأشكالها المختلفة، وأجناسها المختلفة، وموضوعاتها المختلفة، ودورها في بناء هذه التشكيلات النصّية. وهو مبحث غنيّ، ويمكن أن يعيد رسم رؤيتنا لهذه النصوص، القديم منها والحديث، ويمكن أن يكشف عن جوانب جديدة في عمليّة الإبداع.